يوسف أبو ريّة
02
الجزيرة
البيضاء
رواية
المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

يوسف أبو ريه

الجزيرة البيضاء

رواية



٢٠٠٠

القسم الأول

الشمس تميل قليلاً نحو الجهة الغربية ، صورتها المعكوسة على قضيب الحديد كانت تزحف بسرعة السيارة . .

ادنو الآن من الجزيرة البيضاء .

* * *

قالت البطاقة التى وقعت فى أيدينا بعد وفاته إنه المنصور بن الشحات ، مولود قبل انقضاء القرن المنصرم بعامين ، ثم دخل هذا القرن يحبو على قدميه ، كأنه هو ذاته ، جاء معه ، ورحل قبل نهايته بقليل .

لوصدقت أرقام البطاقة يكون مولوداً بعد الإحتلال بستة عشر عاماً ، ويكون مصطفى كامل قد بلغ الرابعة والعشرين ، (هل سمع به ؟ لم يذكر اسمه أبداً ، يبدو أن انشغال هذا المحامى بالكتابة فى الصحف ، والخطابة ، والإنتقال إلى الخارج لإذاعة القضية لدى الجمهور الأجنبى لم يتح الفرصة لوصول هذا الصوت إلى الداخل ، إلى القرى البعيدة).

انهى دراسة الحقوق ، واكتملت قدرته فى السيطرة على الجملة البليغة ؛ ليطلقها فى الوادى « لا يأس مع الحياة ، ولاحياة مع اليأس » والمصرى يحاول معه أن يهتك عنكبوت الوخم ، يخرج من قوقعة الهزيمة ، ويغفر لعرابى المنفى فى سرنديب البعيدة (حدثنى عنه لأنه بلدياته).

كانت البلدة – قبل عامين من ميلاد المنصور – قد تحولت من قسم تابع لمركز الصوالح إلى مركز يحمل اسمها[1] ، نقلت إليها الأوراق والمصالح الأميرية نظراً لوقوعها على سكة الحديد .

(١) تقول الأسطورة إن الاسم القديم للبلدة هو (الجزيرة البيضاء) ثم جاءت جماعة من البدو بعد الفتح العربى يسألون عنها فقال لهم أحدهم : هاهى. . . . فصار يطلق عليها اسم ههيا ، بينما يؤكد محمد رمزى فى كتابه القاموس الجغرافى أنه اسم قبطى قديم .

انقضي زمن القوافل ، وحضرنا زمن البخار الذى يشيع القوة فى عضلات الحديد ، ضمرت الصالحية والصوالح والعلاقمة والقرين وبلبيس لتحيا فاقوس وأبوكبير والزقازيق ، حسم الأمر للبلاد الخضراء ، والماء العذب ، فى مواجهة عصر الرمال والعير .

امتدت سكة الحديد شرياناً جديداً يدفق دم الحياة فى عروق الوادى ، ماتت بلاد ، وتأجل نمو بلاد ، وبلاد ثبتت على حال القرى ، لتبعث من الوجود والعدم مدن جديدة وقديمة . وانحازت الإدارة للحياة العصرية ، فنقلت إلى هذه المدن أوراقها وأختامها ومكاتب المستخدمين ، وانشأت لهم مساكن لائقة بمواقعهم الوظيفية ، وضمنت لهم حياة كريمة تحفظ هيبة الدولة الحديثة الناهضة من غفوة العصور الوسطى .

انطوت فى التاريخ صفحات تحفظ للخيل والجمال مجدها ، وشملت صفحات ناصعة لحياة الحديد الذى يجري على حديد ، ينفث الدخان ، دخان الروح ، وتلبدت سماوات الحقول بسحب لايسقط منها مطر ، وانتفضت سيقان الزرع على ضجيج الآلة التى تنقل البشر والبضائع بين المدن والسواحل .

وجاء الآخرون من وراء الشواطى ينقلون منتجات الأراضى السوداء إلى بلادهم البعيدة ، ثم اتوا إلينا ببضائع مستحدثة ، ودارت ماكينات الحلج والغزل والنسج ، وانطلقت تكتكات الطواحين تقلق سكون القرى الغافية .

ولد المنصور - عقب مد شريط القطار بأقل من أربعين عاماً - فى واحدة من هذه الدور المعتمة التى تفتح أبوابها وطاقاتها على شوارع ضيقة وملتوية لاتتسع إلا لجسد الإنسان وهياكل الماشية .

هذه البلدة ظلت طيلة التاريخ القديم حتى سنى صباه الباكر تحمل ملامح القرية ، وتدار كما تدار القرى بعمدة وشيخ وعدد من الخفراء ،

تتحلق حول الجامع الكبير[٢] الذى اشيع أن أحد صحابة النبى أقام ردحاً من الزمان فى موضعه ، ولم يذكر لنا مروجو الإشاعة اسم هذا الصحابى الجليل الذى كان سببا فى نشر الإسلام ، وتشييد أول مسجد فى الناحية ، وقيل إنهم حين ارادوا تجديد بنائه عثروا أسفل جدار المحراب على حجر كبير محفور عليه تاريخ البلدة ، وجاء رجال ليسافروا بهذا الحجر حيث الحقوه بمتحف العاصمة[٣] .

اقيم الخط على مسافة تقل عن الكيلومتر مابين التل والسهل المسطح الذى ينأى عن ليونة البرك والمستنقعات وأراضي السبخ ، انقضت الوحشة عن هذه المساحة ، وبدأت الأقدام تدب رائحة غادية مع كل قطار ، فخلقت لنفسها المماشي بين الحقول والماء الراكد .

الممشى الأول قام مابين بوابة المحطة وقنطرة النهر التى تربط البلدة بالمورلية[٤] الواقعة على الجانب الغربى ؛ فلأهمية الأخيرة بالنسبة للأسرة العلوية ، ولعلاقة ناسها بالسراى صار لها مكانة خاصة ، فهم من الأسر التى والت ابراهيم باشا فى حرب المورة ، والكثير منهم عمل فى الدائرة السنية ، أسرة الأسطى تنسب إلى السائق الخصوصى للعربة الخديوية ، وأسرة البواب تنسب إلى بواب قصر عابدين ، وأسرة البنحشونجى تنسب إلى البستانى الذى كان يراعى حدائق القصر ، وكذا باقى العائلات تعلو وتسفل وفقاً لمكانتها وقربها من الحاكم ، هذه العلاقة الوثيقة أدت إلى

---

(٢) لاوجود لاسم هذا المسجد فى كتب الخطط ، واشهرها كما هو معروف خطط المقريزى ، والخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

(٣) قمنا بزيارة للمتحف للسؤال عن هذا الحجر التاريخى فلم نعثر له على أثر ، بل إن المسئولين أكدوا إن المتحف لايضم آثاراً إسلامية تذكر لهذا البلد أو لغيرها من مدن وقرى المحافظة .

(٤) آثرت استخدام الاسم القديم ولم استخدم الاسم الدارس « طناح» كما لم استخدم الاسم غير الرسمى « العمارة » ولا الاسم الرسمى الذى ينسب إلى ابراهيم باشا .

ازدهار المورلية ، والإزدهار يصحبه نشاط وحركة ورغبة فى التنقل وتبادل السلع وكثرة التردد على المدن القريبة والبعيدة، وتعدد السفر إلى العاصمة.

الممشى الآخر الذى بدأ من أول انحدار للتل[٥] إلى البوابة الحديدية الكبيرة الواصلة مابين غرب خط القطار وشرقه، لم يكن أبداً طريقاً ممهداً ، بل بدأ كطريق ترابى نحيل يخترق الزراعات فى التواء ملحوظ ، فرضته حدود الملكيات والحركة المحدودة لأهل البلد الذين يتنقلون صباح مساء بما شيتهم من دورهم إلى الحقول الواقعة بالجهة الشرقية ، كانوا - قبل قيام الخط الحديدى - يتوزعون فى طرق شتى ، ثم جاء الخط ليقفل عليهم الطريق إلى حقولهم ، ويضطرهم لعبور البوابة الحديدية ، لهذا فإن السير على طريق واحد اكد هذا الممشى وجعله ينمو ويتسع ، غير أنه ظل محدوداً وضيقاً ، ولم يتخذ لنفسه مساراً حاسماً كما حدث للأول الذى تطور مع الأيام ، بافتراشه بالحصى والزلط ، ثم فى مرحلة لاحقة امتدت عليه طبقة سوداء من الأسفلت ، وغرست على جانبيه أشجار العبل السامقة التي اقتلعت - فيما بعد - لتقوم البيوت على الجانبين ثم تفتح محلات البقالة والمطاعم والمقاهى والصيدليات وغيرها من المحلات التى تلبى حاجة العابر للطريق .

هذه إذن السكة الزراعية التى مازال أهل البلد رغم انتفاء صفة الزراعة يرددون اسمها .

كان احياء هذا الطريق الهام الذى اجبر البلد على النزول إليه مع الخواجة ديمترى[٦] الذى جاء مباشرة عقب انشاء سكة الحديد فافتتح فى مواجهة المحطة مقهى ظل لفترة طويلة المكان المفضل لأعيان البلد من التجار

(٥) هذا التل له تسمية خاصة تتردد على ألسنة العامة وهى « العلواية ».

(٦) قيل أن أصوله يونانية وفى رواية أخرى ترجع أصوله إلى الطليانية وارجح أنه ينسب إلى الطائفة الأولى ، فقد أكدت كتب التاريخ الحديث أن هجمة جريجية دخلت مصر فى النصف الثانى من القرن الماضى .

والموظفين الكبار ، وبقيت حتى زمن قريب لافته السوداء المكتوب عليها بخط أصفر باهت (بورصة) تدل على أن هاهنا كانت تعقد صفقات القطن حيث كانت أكياسه المدكوكة تجمع بالقرب من المقهى ، فى هذه المساحة التى اقيم عليها مكتب البريد وورشة البلاط ليسهل حمله إلى عربات قطار البضائع الذى خصص له رصيف مستقل يمتد حتى المحطة الأولى لقطار الدلتا .

لم يكتف الخواجة ديمترى بهذا بل ابتنى لنفسه بيتاً من الحجر(٧) ، تكون البيت من دورين ، الأول محل بقالة واسع جداً ، والدور الثانى جعله لسكنه ، هو وأسرته ، ثم قسم محل البقالة ، فجعل قسمه الداخلى (خمارة) لتناول الخمور ، ولم يجرؤ أحد من أبناء البلد على التردد عليه ، كانوا يقطعون الطريق أمامه ، فيلكز أحدهم الآخر ويهمس فى أذنه : إنهم فى الداخل يشربون الخمر .

أويقص الطفل الذى قدم إلى محل البقالة على أمه كيف رأى رجالا لهم بشرة حمراء فاتحة يتحلقون موائد فى عتمة المحل يكرعون كئوس الشراب . ومع الزمن تجرأ على اقتحام المكان بعض الأعيان ، ثم جاء شبان البد ، خاصة فى مواسم القطن حيث تكون جيوبهم عامرة بالمال .

بعد ذلك انشأ الخواجة ديمترى الطاحونة التى كانت تدار بالثيران ، يعقد النير على أعناقها ، ويصله بحجر صوان ضخم له مجار منحوتة فى باطنه ، يدور على حجر آخر مثبت على الأرض . لم تكن الطاحونة فى بدايتها تزيد عن رحى مهولة . ثم استيقظت البلد يوماً على صوت الوابور الذى ينفض العادم من ماسورة ترتفع بطول نخلة .

---

(٧) سيؤول هذا البيت إلى أحد عماله بعد أن يضطر الخواجة لمغادرة مصر فى بداية حكم عبد الناصر ، وسيأتى ذكر هذا العامل فى القسم الثانى من الكتاب .

في هذه الاثناء ضاقت دار عائلة المنصور بناسها ، فطلب الجد العزلة ، فـهبط بأولاده التل العـالى[٨] إلى السـفح ليقـيم داره على قيـراط الأرض المجاور للطاحونة .

* * *

الشمس يزداد ميلها نحـو الجهة الغربية ، وصورتهـا المعكوسة على قضيب الحديد لم تزل تزحف بسرعة السيارة .

كنا نعـبـر القنطرة الأولى الـتى تنقل الماء إلى القـرى الواقـعـة فى الزمـام الشرقى، ويعد أقل من كيلوين نعبر قنطرة أخرى . يمر من أسفلها ماء ترعة تقف على حافتها شواهد القبور .

ادخل الآن الجزيرة البيضاء .

* * *

(٨) هناك رواية عن الأجداد تؤكد أن كل من لا يمتلك داراً فى هذا الحى فإن أصوله لاترد إلى البلد ، وانما هو من الأغراب الذين نزحوا إليها ليعملوا فى الإدارات الحكومية المختلفة التى تكاثرت مع بداية انتقال المركز .

- ١ -

حين فتح الباب ، رأيتهمْ فى الردهة يعصرون الدمع من مناديلهم ، وقفوا جميعاً فى صمت ، توقيراً لحزني ، ولكن أحداً لم يتقدم نحوى ، كنت نهباً لحيرتى ؛ لأنى لا أدرى أية غرفة ادخل ، وانتبهت أمى لذلك ، فدنت مني ، ضمتنى إليها منهنهة ، وواربت الباب الذى عن يمينى .

رأيتك على سرير منخفض ، تلملم بدنك النحيل ملاءة بيضاء ، انزاحت قليلا عن الصدر ، لتخرج منها ذراع وحيدة ، ألقيتها أنت دون وعى منك ، فلامست الأرض .

جلست على الحافة ، وأمسكت بهذه اليد المهملة ، جعلتها بين كفى ، ورحت ادعكها بحنان ، رأيت الوشم الذى يدور كخاتم قديم أسفل الإبهام ، شبكت أصابعى فى سلامياتها ، وضغطت علك تنتبه إلى حضورى ، ولكنك كنت مشغولا باستنشاق الهواء بجهد ليطرده صدرك المنتفض فى دفعات قوية .

اقتربت أمى لتصيح فى أذنك : كامل جاء .. انظر إليه . وجاهدت فى أن ترفع الجفنين حتى رأيت الغشاوة التى وارت العين . كم جرحتنى بنظراتها الآمرة .

لم يرتفع الجفنان أكثر من ثانية ، وسقطا مرة أخرى بلا إرادة منك ، وافاضت من تحتهما دمعة كبيرة. بللت جفافهما الأزلى. سالت الدمعة على صدغيك ، فكاد قلبى ينتزع من موضعه لشدة الهول .. كيف تبكى ؟ كيف تضعف ؟

ونشجت بشدة حتى انهار جسمى عليك ، وقدرت أن افعل ما عجزت عنه عمرى . أن احتضنك .

قال الذين يجلسون بالخارج : اغلقوا عليهما الباب .

حين سـقط الظلام ، وانحبـس عمـود النور بين الضلفـتين . سمـعت نحيـبهم ، ورأيت عينيك تنفـتحان عن آخـرهما ، فحرت مـا بين الخوف والرجاء .

* * *

اراني واقفاً أمام أبي (جدك) الذى سيستدعوننى يوماً وأنا جالس بين الرجال لا سمع كركعاته وهو نائم على ظهره عارياِ فوق المغسلة ، رفع كفى الصغيرة الباردة ، وطوى أصابعى على القرش ، ثم فتح لى الباب فواجهنى تيار الهواء الذى ازال روائح دخان القش من غرف البيت ومن جسدى ، ودعا الله أن يفتحها فى وجهى ، ومن الداخل أتانى صوت أمى (جدتك) التى ستعيش حتى تموت فاقدة البصر وهى تدعو الله بأن ينور طريقى ويحل عقدة لسانى ساعة سؤالى ، ياللمسكينين كانا يحلمان بأن اصير من رجال العلم !!

سرت متأبطاً لوحى ومنديل غدائى محاذراً بحيرات الماء المتجمعة من أمطار البارحة ، ولا قيت فى طريقى ديمترى صاحب الطاحونة (التى ستؤول إلىّ) يشرف على رجاله ، وهم يضعون الحجارة الكبيرة ، من أول الشارع حتى حجرة الميزان .

- ناموسيتك كحلى يامنصور .

- صباح الخير ياخواجة .

- مطر كتير . . زبون مافى . . فلوس ما فى .

رفعنى واحد من رجاله ، وسار بى فوق الحجارة ، ووضعنى على أول الطريق .

- احفظ القرآن ياولد .

- يامطرة رخي . . رخي . .

- امشى كلبة .

على يمينى الدار التى سأبتاعها لتدخل حرم الطاحونة كى تحقق المسافة

القانـونية بين الوابور وأقـرب جار ، وعن شـمالى الأرض الى سـأؤجرها لازرع فيها عيدان القصب ، قبل أن يتحقق الحلم فى امتلاك الطاحونة .

على آخـر زاوية من هذه الأرض يطل المقـام المدهون بالجيـر الأبيض ، وتميل على قبته أغصان الجميزة العريقة .

لاقيته تحتها ، يدق المسمار الحدادى فى جذعها ، انتبه لقدومى ، فاشار إلى ، قال : يمكنك أن تعلق صرة الغداء فى هذا المسمار .

- لا اريد البقاء معك فقد تغيبت بما فيه الكفاية .

- أنت الآن تفك الحروف بعينك وترسم الحروف بيدك .

- لم اختم أجزاء القرآن .

- ها أنت ترانى فى مكانى لا اقرأ ولا اكتب ولا ينقصنى شئ .

- إن الشيخ قد يخبر أبى عن غيابى .

- سنبتنى اليوم حظيرة كبيرة .

- أنا البنّاء .

- طبعاً .

- لابد للحظيرة من مواشٍ تربط على مداودها .

- لدى كلبان رائعان . . علق الصرة هاهنا وسأدلك على مكانهما .

علقت الصرة ، وركنت اللوح على عتبـة المقام بينما هو يحضر الطوب ، ويعـجن التراب فى المـاء ، ذهبت إلى القناة الجافـة التى تلتف حـول داره حيث وجدتهما هناك مغمضى العينين ، رفعتهما من جلدة العنق ، وعدت إليـه ، فوجدتـه قد فرد الصـرة على الأرض واخـرج الخبز والجـبن ، قال والطعام يتناثر من فمه .

- الكلبان بالرغيف والغموس .

ظل يساومنى بصرة غدائى مقابل اللهو بجرائه وتشـييد البيوت الصغيرة حتى فاجأنى أبى ذات صباح ، فـأمسكني من قفاى ، وجرنى إلى البيت ، غلق على باب الحجرة و . . «فين يوجـعك » وكنت أسمع نحيب أمي من الخارج .

- تستاهل . . تبيع كتاب الله بكلاب صغيرة .

صباح اليـوم التالى عقدت لى صـرة الغداء ، هذه المرة لم يكن طريقى إلى الكتاب إنما وضعت على الحمارة قهراً .

وسحبت مع الماشية إلى غيط « الحاشية »[1] .

قضيت فيه صبـاى ، وأول فتوتى ، ثم عدت شاباً لأؤجر الأرض التى لهوت عـليها طـفلاً ، وعشـقت بين حدود ليـلها أول امرأة ، كـانت من نصيبى .

* * *

---

(١) منسـوب إلى أحد رجال الحـاشيـة الملكية من المـعروف أن معظـم أراضى الحوض الشرقى من انشاص إلى الصـالحية من أملاك الأسرة العلوية ، والمنطقـة التي هى محور هذا العمل كانت أملاكها تتبع محمد على باشا ابن الخديو توفيق ، والبرنس حليم باشا

- ٣ -

دخل علينا أخي فؤاد (الذى سيدفن إلى جوار أبيه بعد رحيله بخمس سنوات) فعادت العين الكلـيلة إلى إغماضتهـا ، والقيت الذراع إلى فراش الأرض ، ربت على كتفى مـواسياً ، ومال على وجه أبيـه : كيف حالك اليوم ؟

وهمس فى أذنى : تسمح .

واخرجنى من غرفة الأب (التى سنحيلهـا إلى مدخل للبيت حين نعيد بناءه) دسنا بنعـالنا على الحصـير الذى تتـوزع عليه النسوة ، لـنمرق إلى الغرفـة الغربية (سنقســمها فيـما بعد لنشكل منها المطبخ والحـمام) نفض الجلباب عند بطنه البارزة ، وسحب من حافظته ورقة صغيرة .

- أنا اسجل كل شئ .

- تقصد المصاريف .

- لا حرج فى هذا . . لن يخسر أحدنا شيئا من جيبه .

- كله من خيره .

- طبعاً . . عدت للتو من الجبانة .

- إنك تتعجل الوفاة .

- حاشـا لله . . التربـة كانت مهـملة ، فأخـذت رجلين فتـحنا العين وكومنا العظام القديمة على جنب ، وكنـسنا مكانها ، ثم فرشناها بالرمل ، واعددنا الطوب الأحمر والأسمنت (سأراه بعد خمس سنين وهو يُرفع عن النعش ملفوفاً فى كفنه ليدخل من نفس العين ليمدد بطوله على رمل جديد إلى جوار كومة من عظام الأب) .

- يا أخى ينبغى أن نتحدث عن الطبيب المعالج ، لا إعداد المقبرة .

- أنت صغير السن ولا دراية لك بمثل هذه المواقف المحرجة .

- ربما .

- هل حدثك عن المال الذى ادخره لمثل هذا اليوم ؟

- أبداً .

- قلنا إنه استعجل قدومك لهذا الغرض .

ورايت أمى (التى سترحل بعد خمسة شهور من رحيل الأب) تقبل نحونا ، فأدار ظهره ، وتشاغل بالنظر إلى السقف ، وقفت بيننا عاقدة يدها على بطنها . ونظرت إلى أخى :

- هكذا ينعقد لسانك فجأة كلما لمحت وجهى .

- ياخالة اقول له لابد من طبيب كبير للكشف عليه .

- ولماذا لم تفعل ذلك قبل مجيئه !

- وهل قصرت ؟ لم يسهر عليه غيرى .

- اذهب لحالك .

- سأختفى عن وجهك ، ومن يحتاجنى فإنكم تعرفون بيتى .

واتجه غاضباً نحو الباب ، ومدت الأم يدها إلىَّ قائلة .

- إنك بحاجة للراحة .

- فعلاً .

- السفر كان شاقاً بالنسبة إليك ؟

- سأموت من الجوع .

- غيرً ملابسك وشطف وجهك أولا .

عدت إلى الردهة حيث النسـوة القابعات بجلابيبـهن السوداء ، كان باب غرفة الأب مفتوحاً ، وصوت شهيقه وزفيره يملأ المكان ، ولمحته بجانب عينى ينظر نحوى ببسمة حلوة لم تعل وجهه إلا مع سنوات الشيخوخة المتأخرة .

* * *

دخلت غرفتى المهجورة (سنجعلها محلاً يفتح أبوابه على الشارع الرئيسى) لم يتبدل شئ فيها ، السرير فى مكانه تحت النافذة العالية ، والمكتب الصغير أمام أرفف المكتبة المعلقة على الحائط والطاولة عليها الصينية الدائرية التى تحتوى على علب الشاى والسكر وموقد السبرتو .

فتحت زجاج النافذة المنخفضة ، وتركت الشيش مغلقاً . فسرت فى الغرفة نسمة هواء خفيفة مصحوبة بأصوات الشارع . ياه . . وفردت ذراعىّ عن آخرهما ، وحركت جسدى إلى الأمام وإلى الخلف ، مددت طولى بعرض السرير فثارت ذرات غبار نفضتها بيدى .

وسرحت أفكارى إلى الليالى الطويلة التى قضيتها بين جدران هذه الغرفة ، شرنقتى التى تشكل فيها العقل والوجدان معاً ، الرحلة بدأت من هاهنا . . فهل ستصل إلى منتهاها فى نفس المكان ؟

(ورايتنى اصعد سلماً قديماً ، ليس له سور ، خيل لى أنى سأقع إذا زلت القدم ، وكنا تركنا الظلام فى المدخل ، ظلام باهت ، مما أكد لى أن الشمس رحلت إلى بلادها البعيدة ، والبيت قبل أن ندخله كان عالياً ، وموحشاً ، والخلاء كان جاثماً بين نخيل وأشجار خريفية ، لا شئ . . فقط البيت ، بمشربيات ومداخن ، وسطح منحدر على الجانبين .

وقفنا أمام الباب المهترئ ، نصفه الأعلى مفتوح ، لازجاج .

فى عينيها مكر حواء ، وفى قلبى حب ، وغيرة .

شعرها فوضى ، ورداؤها خرقة ، بانت أفخاذها البيضاء فيها الرغبة والنار .

طرقت كصديقة ومبشرة ، رفضت أن أصحبها إلى هذا المكان ، آثرت أن نمارس حبنا وحيدين ، فى كهف ، أو على قناة أو بين فرعى شجرة

كثيفة الأوراق ، لكنها جرتني عنوة ، قالت : إن لى هنا أصدقاء . . يمكن أن نمكث معهم .

شكت الغيرة قلبى ، سألت : ولم مع الآخرين . . أنا الذى يحبك . . أنا الذى آمرك .

النافرة المعذبة لم ترد ، مدت يدهـا فى نعومة إلى الرسغ ، وجرتنى ، أنا حيالها ضعيف مغلوب ، لا أملـك إلا أن أسير خلفها ، قاتلتى مازالت بمديتها الباردة تحز فى بقايا عنقى .

بعد الطرقة الثالثة خرج شاب ، رأيت فيه ملامح زميل قديم ، كان هو ، النحيل الضـئيل ، رآنى ، تجاهلنى ، شدها من يدها ، واغلق من خـلفها الباب ، كانت يدى ممدودة من فـتحة الباب العلوية بالتـحية ، لم يسلم ، وذهب ، صرخت ، العجـيب أنها لم تهتم ، دهبت معه كـمومس تعرف طريقها .

سمـعت ضجيجـاً بالداخل ، يبدو أن معه آخـرين ، دقت يدى الباب بعنف ، دقت ، ودقت . . كانوا يحـيطونها فى الردهة أمامى ، يقـبلونها بتهافت ، ويرفعون ثيابها بلا احتـرام ، رأيت حتى سراويلها ، هى حبيبتى لا يرفعه غيرى ، العجيب أنها لم تظهر نفورا .

اللعوب بالداخل ، أنا لا اقدر على فراقها .

خبطات يدى كـادت تكسر الباب ، جاء الذى بملامح الزمـيل القديم ، كان عـارياً ، ذهب نظرى للتـو إلى مابين فخـذيه ، البغل نسى أن يـخفى عورته ، زعق فى وجهى - عبر الباب - ماذا تريد ؟

فى ضعف اجبت : أدخل .

ودخلت ، إلى جوارها وقفت وحضنت كفيها : ماذا يبغون منك ؟

لم ترد ، عيونها حزينة ، يبدو أنــهم أقوياء بمافيه الكفاية ، أو أن عادة أن تجئ إليهم أقوى منها .

رأيت فى ملامح الآخريـن أصدقاء قدامى ، هم من كانوا ينـافسوننى، أكرههم ، عوراتهم خارج سراويلهم ، خـفتهم ، قلت فى نفسى : وقاحة .. لابد لهؤلاء أن يلقوا الموت على يدى هاتين .

وأكدت : كل شئ يقع فى حينه .

مشت ورائى بـإذعان ، واعتـذرت بنظرة للآخرين ، بصـقوا ، بصقـاتهم نار تشبثت بظهرى ، لم انظر ورائى ، همست : حبيبتى لم تفعلين ذلك ؟ أنت لى .

ونظرت فى خـــفـر ، على السلـم المظلم ، ادرتهـا بعـنف ، هرست بأسنانى شفتيـها ، وطفرت من عينى دمعتان ثقـيلتان ، ونشوة تكثفت فى أرنبـة الأنف ، لم أدر أن أظافـرى هتكـت ثيـابهـا من خلف ، وددت لو اضربها، اضربها ، وفى اثناء ذلك تأتينى الذروة).

* * *

من الذى منحك اسمك ؟

السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أعطى اسمه للصالحية .

والعباسة أخت أحمد بن طولون اعطت اسمها لبلدة العباسة . والمقاول ابراهيم زقزوق ترك اسم عائلته للزقازيق . (وهبـه محمد على الكبير هذه العطية لدوره العظيم فى جـلب العمال الذين رفعـوا على أكتافهم حـجارة القناطر التسـعة التى كانت سبـباً لنشأة هذه المدينة الحديثـة) المدينة الغلاّبة التى كانت على موعـد مع العصر الجديد ، فقضت على بلبـيس العريقة ، سحبت منها الأوراق والأختام والموظفين والتجار والأعيان ، وكانت نشأتها فارقـاً فى الزمان . غلقت على بلبـيس أبواب التاريخ ، وفـتحت لنفسـها نوافذ ، ومهدت طرقاً نحو عالم المدينة المعاصر .

قطعت جيوش الغزاة الطريق بعيداً عنك .

كنت قابعة على أرضك السوداء إلى جـوار النهر ، كامنة فى سذاجتك ، كأن الأمر لايعنيك ، وأكتفيت بإرسال الخراج لمن غلب ، وتطهرت أرضك من دنس أقـدام الجند ، تدور المعـارك فى ساحـات بعـيدة ، تنصـتين إلى عجيجها ، ولا ينتفض لك عرق . فهل كنت عليمة بالنهايات ؟

دومـاً هناك فوق تلك الأرض قـابضة عـلى أذيال ثوبك البالى من مـاء الفيضـان ، وترفعين أقدامك خشية السـقوط فى مهوى البرك والمستنقعات التى يخلفها وراءه .

هؤلاء أول القـادمين ، إنهم الرعـاة الذين اسـمـتـهم كـتب التـاريخ الهكسوس ، هاهم يدقـون أوتاد خيامهم من وبر على أطراف الـصحراء ، بينك وبينهم مسافة كافية ، تكفل لك الحماية .

يمر قمبيز فلا يقف على أعتابك .

ويأتى الإسكندر من الغـرب فتنــأى عنك المسافـات ، فهـذه المرة يأتى الأغراب من الجهة المعاكسة ، وصـارت أرضك طرفاً شرقياً ، لاتطاله اليد ، فهل كنت بعيدة حقاً ؟

ويجئ يوليوس قيصر ، ثم أكتافـيوس ، وتبدل أسماء المدن . هل حقاً كنت موجودة ؟ هل كان لك اسم ؟ أولـدت فى زمن الفراعين أم فى عصر البطالسة ؟ هـل كنت نواة قرية حينى كـانت أرضك تسمى جـاشان ؟ هل منحك يهوه إلههم الدموى أسمك ؟

وجاء عمرو ليعيد للطريق الشرقى الحياة .

فأين كنت يوم عبر بجيشه ؟

قال التاريخ إنه استراح فى القرين التابعة لك .

مرة أخـرى الصحـراء تجئ ، والخشـية من عـبور الأنهـار إلى الأرض السوداء « لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحـول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ». هكذا نصحهم الخليفـة ابن البادية ، هو يهاب الماء ، ويسعد بخراج الأرض « فلعمـرى ياعمرو ماتبالى إذا شـبعت أنت ، ومن معك ، أن اهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه ».

ويرد عليـه عامله « فـيا لبيك ، قـد بعثت إليـك بعير أو لهـا عندك ، وآخرها عندى . . . ».

* * *

لويت رأسى جهة الباب لآمر الطارق بالدخول .

فدخلت أمى (ستلفظ أنفاسهـا الأخيرة بين جدران هذه الغرفة ، وعلى سريرى الـذى يرفع بدنى الآن) كانت فى جلبـابها الأسـود تحمل صيـنية واسعة عليها أطباق الطعام .

- ضعيها على المكتب .

- ستتناول طعامك فى هذه الظلمة ؟

- بعد قليل سيحل الظلام بالخارج أيضا .

* * *

النهر وسكة القطار وأنت بينهما تعافرين لتقـضى على قدميك ، متوكئة على خطين ، خط من ماء وآخر من حديد .

ليس فى نشأتك غرابة ، فأنت لم تولدى بمعجزة ، ككثير من البلدان ، فلا التفت حول ضريح ولى ذى كرامات ، ولا تخلفت عن ثكنة عسكرية فى موقـعة مـشهورة ، ولا قـام على أرضك أثر[1] ينتهى إلى عـصر من العصـور ، بداية عادية لقرية عادية ، لا يسكنهـا سادة ، ولامنحهـا اسمه قائد من القواد .

لتاريخك سحنة نهرك ، انسيـاب ساكن ، لايُسمع له هدير ، ولاخرير ، لو ألقى الحجر على صفحة الماء لخرجت تستطلعين الخبر .

اضنانى البحث عن أصل لك فى الكتب القديمة .

طالعت قوانـين الدواوين لابن مماتى ، وقرأت كتـاب ياقوت « مـعجم البلدان فى معـرفة المدن والقرى والخـراب والعمار والسـهل والوعر فى كل مكان » وقلبت صفحـات البكرى " معجم ما استعجـم فى أسماء الأماكن والبلدان » وكتاب ابن الجياع " التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية »

وجـدتك فى صفـحـة وحيـدة من كـتاب علمـاء الحـملة حين قدمـوا مسـتطلعين رحلة « مويس » الذى يصب فى المالح بـأقصى الشمـال ، قال كتـاب وصف مصـر : على بعد ثلاثة فـراسخ من بوباسطة ، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة مـحاطة بغابة كثيفة من النخيل ، وعلى الرغم من أن اسمـها كان مـجهولا من كل الجـغرافيـين ومن أنها لم تكن

---

(١) اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤوس الجمال والمساخيط الذهبية التى يزعم أهل البلد أن فلاناً عثر عليها فى زريبة من الزرائب أو فى جدار من الجدران القديمة لتبرير ثرائه المفاجئ أثراً من الآثار الجديرة بالعناية .

معروفة فى ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضراً ، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكاناً كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بهـا ، والجزء من غابة النخـيل القريب من السكان ، يزرع فى شكل تخميسة « أربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط » وبعناية تشبه العناية التى تلقـاها الحدائق الأوربية ، وتحـاط المدينة بسور به فتـحات يبلغ ارتفاعه خـمسة أمتار وهـو فى حالة جيدة تعلوه أبراج قوية مـسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابى .

وتعلو أبوابهـا التى صنعت بشكل أسطوانى جـزءاً من السور ، ويبـدو سكان هذا المدينة أكثر تحضراً من جيرانهم ، ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس في كل مكان يحملون السلاح ، يسودهم روح من التـمرد والضجر ، وفى هذه المدينة ، وعـلى الرغم من أننا كنا - ربما - أول أوربـيين يمثلون أمـام ناظرهـم ، خرج الناس فى شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولـم نلمح من بينهم رجلاً مسلحاً .

وابتـداء من ضواحى المدينة ، وحـتي الجـزء الأدنى من الترعـة لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبـير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولانوافذ والتى تختـرقها بعض الـطوابى ، وهذه الأبراج تستخـدم كمأوى للـسكان عندما يفاجئهم أويلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلالـم من حبال .

* * *

- ٧ -

أفزعني دخـولك المفاجئ ، وأنت بقميـصك الأبيض القطنى المبلل عند الصــدر ، تدفع بذراعك الجـافـة كـتل السـواد التى تشـدك من الخلف ، وضجت غرفـتى بصياحك الذى أطلقتـه بعزم جسدك المحتـضر فى النسوة المتشبثات بقميصك : دعونى .

ازحت صيـنية الطعام جـانباً ، وأقـبلت عليك لآخذ بيـدك ، ارتخت ذراعك فى قبضتى ، وسرت أمامى طيعـاً كطفل يتعلم الحبو ، رفعتك إلى سريرى بحذر ، واستجبت لى حين أملت ظهرك لادس الوسائد .

قلت لأمى التى وقفت تنوح مع النسوة : عودى بهن إلى الصالة .

- ألف سلامة عليك ياغالى .

ولوحن بمناديلهن نحوك وهن يسحبن أبدانهن الثقيلة إلى الخارج .

كنت تجاهد مع النفس ، يأتى الشـهيق فتنفضه نـفضاً ، ويعقبـه الزفير فتنكمش حد التلاشى ، تركتك حتى هدأت تماماً ،

واسـتعـدت سلامـك مع البدن الواهى ، قلـت لى : عودتك ياكـامل اطلقت بجسمى قوة الحصان .

- الحمد لله .

- سلّمت أمرى لملاك الموت طالما سأموت بين يديك .

- اتمنى لك الشفاء والعافية .

- إنهم بالخارج يرجون رحيلى الساعة قبل الغد .

- متعك الله بطول العمر .

* * *

أرانى أنا المنصور بن الشحات فى ليلة لانجمــة فيها ولا قمر . كنتُ فى الخص الذى اقمت جوانبـه من سدد الغاب ، وعرّ شـته بالجريد والقش ، ووقعت عيـنى على الرجل ينحدر على الأرض باتجاه خيـال المآتة المنصوب وسط الزرع ، كان ينحدر عبر الفضاء المفتوح من جهة ميدان المحطة .

كنا - فى ذاك الزمـان البعيـد - نراه مسـاحة واسـعة خاليـة من الدور والمبانى المرتفعة ، تنتهى حدود الأرض المزروعـة بالخضار ، بعيدان القصب التى تنغلق على الغموض والتوجس ، وكنت في هذه اللحظة انتظر قدومها من نفـسى الإتجـاه ، فلم أرغب فى القـيـام إليـه حتى لايعـطل موعـدى المختلس .

كان لـم يزل ينحدر على (ريشة) القناة المائلة نحو الأرض ، هذه القناة كانت تجلب ماءها من الترعة الموازية للسكة الحديد ، هل رأيتها ؟

ردمت قـبل عام الوحـدة بعـام ، وبعد عـام العـدوان الثلاثى بعـام ، فالسـيارات بدأت تتردد بكثـرة من العاصمة إلى مـدن الأقاليم الشمـالية ، والطريق القديم لم يعد صالحاً لا ستقـبالها ، واختنق مدخل البلد باعدادها الكثيـرة ، فمدوا المواسـير الضخـمة تحت الأرض ، وجـعلوا لها فتـحات كغرف التفتيش ، وسيـجوا شريط القطار بسور من الدبش الأبيض ، ليقل خطر الحوادث ، فكم من رجـال وأطفال دهستهم عـجلات القطار ، حين كانوا لا يحاذرون على أنفسهم عند عبور الشريط .

والساقية كنت تراها على رأس الحقل هناك ، بنفس الموضع الذى تشغله الآن محمـصة البن : كانت القناة التي أروى منها أرض القـصب فرعا من قناة كبيـرة تتفرع روافدها فى الأرض الواسعة الـتى كانت تشكل سفح التل القديم .

المهم أنى تجاهلت الرجل ، ولم انبهه لوجودى حتى لايضيع على موعدى المنتظر ، وهو ظل سادراً فى اقتحامه للأرض ، ويدنو من خيال المآته على ظن بأنه صاحب الأرض ، يدنو منه ماداً يده بثمن القصب : ياعم .. عم يابتاع القصب .

والخيال قابع بمعطفه القديم ، وبيديه الممدودتين عن آخرهما ورأسه الكبير الملفوف بقماش بالٍ .

والرجل يقترب : عاوز قصب ياعم .

ولما صار قريباً جداً من الخيال اكتشف صمته الكئيب ، فدار دورة كاملة حول نفسه ادت إلى سقوطه على وجهه حتى سمعته يتفجر بضرتة عظيمة اهتزت لها عيدان القصب ، وقام على يديه ورجليه ، ثم هوى مرة أخرى ، وراح يهوى ويقوم فلم يصلب له حيل إلا وهو يغادر حدود الأرض .

ولم اتمالك نفسى ، فاستلقيت على ظهرى وأنا اقهقه على مشهد الرجل المرعوب ، ولم استفق إلا على شبحها الواقف على مدخل الخص .

كان أبى قد قال لى حين زارنى فى الخص ذات صباح فوجد فطيرة البارحة : والله ياابن الخاسرة لتموت مسموماً . فقلت له : خليها على الله .

وقص على حكاية العشيقة التى دست السم فى فطيرة المعشوق بعد أن لاقت منه الأمرين ، وراوغها فى الزواج بعدما وقع المحظور ، فقلت له : لكنى اريدها .

وكنا قد تقدمنا لأبيها ، فأصر على مهر لايقل مليماً عن ستة عشرة جنيهاً ذهبياً ، ولم اكن املك غير الخمسة عشر ، وأصر أبى على هذا المبلغ لايزيد مليماً ، وتمسك أبوها بطلبه .

ونفض أبى نفسه من الجلسة غاضبا ، وقطعت عهداً على نفسى لتكملة المهر المطلوب ، ونويت على الكدح ليلَ نهار ، على أن يمنحنى مهلة لاتقل عن العام ، وخلع أبى يده من الموضوع .

ولم تنقطع هى عن التردد على الخص ليلاً ، وقضينا أمسيات هنية بين سيقان الغاب وعريشة القش ، نخطط لأيامنا المقبلة .

دخلت علىَّ فى هذه الليلة - فوجدتنى على حالى ، تنطلق منى الضحكات غصباً كلما استعدت مشهد الرجل الهارب من خيال المآته.
قالت : من يضحك لوحده يزور .

وضعت صرة الفطائر جانباً ، ومالت علىَّ بجزعها فضممتها إلى صدرى بشوق لاينفد ، وانتشر فى المكان فوح الفطائر الدسمة ورائحة السمن البلدى مخلوطاً بالعجين الذى استوى على مهل فى نار الفرن المقدوح بحطب الذرة ، واقترنت لدى هذه الرائحة بليالى الغرام الأول ، فهى تستعيد لى عنفوان الصبى المنقضى ، فهل لها من استعادة ؟ أم أنها ترسبت هناك فى قاع الذكريات البعيدة ، وصارت المستحيل ذاته ؟

قلت لها : هانت ياأمينة ، على آخر الموسم يجمعنا السقف الحلال .
قالت إن أباها يبذل كل الجهد لخلعه من دماغها ، وهو عليم بأن جهده هباء ، وأمى تصده قائلة له لا تحاول هى له وهو لها .

- هل تعلم بمجيئك إلى هنا ؟

- ومتى رأيت أماً ترضي لابنتها الزيارة الليلية لشاب يتكلم عنها ؟

- هذا صحيح .

- هى تنام بعد صلاة العشاء مباشرة ، وأبى يخرج ليتمم على خفرائه .

– وأنا مطمئن أنه لن يأتى خصى أبدا .

– سيعود إلى السهر معك ليشرب شايك الحبر إذا وفقنا للزواج .

– ربنا يسهل .

– إن الأمور تتعقد خاصة بعد أن انضمت إليكم أختك وأولادها .

وكانت أختى الكبيرة قد انتقلت إلى دارنا بعد مصرع زوجها ، طاحونة ديمترى لم تكتف بفديتـها الأولى ، ذلك الصبى الذى التهمـه السير من يد أمه ، وهمدت قـلوب الناس عقب الحادث ، وقالوا هاهى الطاحـونة تنتقم لنفسهـا . هذا الكافر جحد حقـها فى الفداء ، فكظمت غيظهـا ، وتركته يعمل ، يدير آلاتها ، ينقل الحركة من الوابور إلى السير الذى يتمطى تحت (السندرة) من حجرة العدة حتى القادوس لينقل الحركة إلى الحجر الصوان المنقوش ، دارت الطـاحونة ، ولم تعلن عن حاجـتهـا أبداً ، وكان الناس كلما سمعوا صوت العادم تقذفـه خارجها فى كتل دخانية داكنة يقولون هذا هو نداء الدم . إن الطاحـونة تطالب بحقـها ، حتـى كانت تلك الظهـيرة الحامية ، حين غافلت الأم الذاهبة لطحن غلالها فخطفت الولد من يدها ، التهمـه السير الشرس ، وهرســه تحت أسنانه ، طوى الجسد الصـغير تحت لسـانة المطاطى الأسـود ، وراح وجـاء بين الطارات ، ثم لفظه قطعـاً من عظام ولحم فوق الأرض المنداة بالزيت .

واضطر ديمترى إلى بيع الطاحونة لعائلة زوج الأخت الذى امتلك سهماً مع اخـوته ، هؤلاء الاخوة الذين كـانوا يعمـلون عند ديمترى ، فـتعلمـوا الحرفـة الجديدة ، فنقلتـهم من شقـاء الفلاحة إلى ترف الجلـوس على دكة الميزان ، وعلى كرسى الطحان .

ودخل زوج الأخت ذات صبـاح ليرفع السيـر من الطارة المتحـركة إلى الطارة السـاكنة ، فمـا أن ثبته على الثانيـة حتى لفعه معـه ، فدارا سوياً ، بعدها جمعوه عجيناً أحمر فى جوال قديم ،

وعلق أهل البلد قائلين : الملعـونة أخذت فداء المشتـرى الجديد . قلت لها : رزقهم على الله . . ولكن لن أكف عن المطالبـة بحق هؤلاء اليتامى من أعمامهم .

وسألتنى : ماذا ستفعل لمواجهتهم ؟

– المشكلة ليست معهم . . المسألة فى يد الأخت .

– كيف ؟

– إنها تخـفى الورقة التي تثـبت حق زوجها فى الطـاحونة ، وتخطط للإستقلال بحـياتها والعيش بما سيمنون به عليهـا ، وأنا اريد استغلال هذا الحق فى المطالبة بحقوق أبى أيضا .

– أبوك !!

– إن له ديناً عندهم ، وهم يماطلون ، سأخوض المعركـة معركتين ولن ارتاح حتى تئـول هذه الطاحونة لنا ، يكفى العـمل فى أراضى الآخرين . احلم بأن تكون لى أرضى ، واحلم أن اتعلم حـرفة أصـحاب الطواحين ، ليكون لى ملكية الأرض والطاحونة .

وانطلقت الرصاصة فـاغتالت الصمت ، ونثرت أشـلاء خيال المآته بين خطوط الزرع ، خيل إلىّ أن القمر قـد انطفأ ، وانطمس المكان تحت ظلمة أشد حلكة ، لم تمنعنى من رؤية شبح الرجل الذى جاءنى أول الليل يطلب قصباً ، كان فى زيه الرســمى يعتمر لبدة الخفير ، ويحمل بندقـية الخفير ، ويشير للرجل الآخر نحو المكان ، تقدم الرجل بعد أن عاد الخفير إلى دركه ، كان يتوجه باتجاه الخص مصدراً بندقيته أمامه ، وصاح : اخرجى ياأمينة .

همست إلىّ : هذا أبى ، واندفعت لتحمى جسدى من رصاص بندقيته ، وقفت أمامى فاردة ذراعيها ، وخرجنا أنا وهى من الخص لنواجه الأب .

- تعالي يافاجرة.

تمالكت نفسي وقلت متحدياً : اردتها على سنة الله ورسوله .

لم يجب على كلامى ، وسحبها من كفها ليدفعها أمامه ، وقبل أن يعبر القناة الجافة ، التفت نحوى ليقول

- تأتى فى الغد لتطلبها شرعاً . . لا يهم الجنيه .

* * *

- ٩ -

كم مرة دست هذه الأرض يا كامل ؟

مائة مرة ، ألف مرة ، مليون مرة ، مرات . لا تحصى ، ولا تعد ، هل يحفظ المرء خطوات أقدامه ؟ الذاكرة تمتص ، وترسب ، وتبقى من الواقعة صورة أوصورتان ، ليس من الضرورى أن يكون عدد الخطوات موحداً فى كل الأمكنة ، ولكنها بالتأكيد تكثر فى مواقع الحنين ، وتبهت فى مواقع النأى ، واللاضرورة . مركز العالم هو مسقط الرأس ، وما عداه هو مجرد دوائر تلتف حوله . الدائرة الأولى الأكثر اتساعاً هى الأضعف فى التذكر وكلما ضاقت الدائرة تتكثف الذكرى حتى الوصول إلى النقطة التى لا قطر لها ولامحيط ، إنها بؤرة الميلاد . مساحة الحبو ونطاق القيام للإستناد على أول جدار ، منحة الضوء الأولية واللقاء الذى لاينسى بلمسة النور الحانى ، السعى إلى الكتاب ، الطريق إلى المدرسة ، الدرج الذى يأخذك للصعود إلى مئذنة الحى لترى الدنيا الواسعة ، من فوق ، من أعلى مكان ترى فيه الأسطح وأبراج الحمام وذؤابات النخيل ، وفضة النهر السائلة فى أقصى الطرف الغربى . التردد على الحى الجديد الذى انتقلت إليه الأسرة حين ضحكت الدنيا للأب ، فضاعفت رزقه ، ليخرج من عتمات دار العائلة إلى بيته الذى صب قوالبه من طين الأرض التى فاضت به كما تفيض عادة بخيرها العميم .

ما بين الحين كانت الخطوات . . .

وكان خروجى فى هذه الساعة ، اقف قليلاً على عتبة الباب ، استطلع وجوه المارة ، إنه موعد العودة من الحقول ، الحمير ترفع الأحمال ، يجلس عليها أولاد يمسكون بحبال دواب لا تخفى بهجة العودة بعد أن امتلأت بطونها وارتوت من ماء الترع ، عفرة قليلة تنتشر فى المكان ، وزخم روائح المغربية ، هو خليط من أنفاس الماشية ونبات الأرض ، مزيج

من عبق الزرائب الخصبة بالروث الطازج وزفير الإنسان الآكل للخبز ونواتج الألبان .

اقطع الشـارع المفتوح عليـه بابنا ، لأدخل الشارع الفـرعى . على هذه الناصيـة ، بل فى هذه الزاوية بالذات ، كان يجلس التـركى يقول أبى إنه كان يأتى كل صـباح بكرسى الخيـزران ، ليحط عليه بـدنه الممتلئ ، تحت ظلة هذا البيت القديم ، دائما يختار الظلة ،

لأنه لا يستطـيع أن يفتح عينيـه فى النور ، يضع الساق عـلى الساق ، رامياً ظهره إلى الخلف ، كتلته تشع البـياض ، الجلباب ، وشال العمامة ، والنعل ، وعظمة المنشة المصنوعة من ذيل حـصان ، يبرم شاربه الناصع من طرفيه ، وينـتظر النسوة الذاهبات إلى الطاحونة ، فـيخرج من جيـبه عملة فضية كبيرة ، ويشير إلى المرأة التى يهتز بدنها تحت ثقل الطحين .

- بارة . . تعالى . . بارة . .

هو لاينوى القيـام ، ولا يخطر بباله أبداً أن يصـحب أمرأة إلى بيـته ، حيث يعيش وحيداً ، يكتـفى بهذه الإشارة ، وحين تمرق المرأة من أمامه ، وتختـفى وراء سـور الطاحونة ، يعـود بظهـره إلى الخلف ، ويروح يهش الذباب عن وجهه ، بانتظار امرأة أخرى ، هو لا يخـتار واحدة بعينها ، لا يفكر فى الجمال ولافى القبح ، يكفيـه أنها أمرأة ، أية امرأة ليميل بانحناءة خفيفة إلى الأمام ، ويشير بعملته الفضية : بارة . . تعالى . . بارة .

أما أنا فـقد عاصـرت المرأة التى سكنت بيته ، رأيتـها دائماً وحـيدة ، كانـت زوجة لموظف ، أتى بهـا إلى البلد ، حين دعتـه الضرورة للـحاق بعمله ، انجب أولاده هنا ، وانهـوا تعليمهم فى مـدارسنا ، ثم غادروا إلى الدنيا الواسعة ، وتركـوا الأم والأب وحيدين ، ثم كان على الأب أن يلبى نداء ربه ، فانتقل إلى العالم الآخر .

كنا لانرى هذه المرأة فى سالف الأيام ، وفجأة خرجت على الناس بطشت كبير ، وزعت فى مساحته القلل البيضاء النظيفة ، تقعد من الصباح الباكر على عتبة الدار ، وأمامها الطشت يضوى الضوء فى القطرات المخلوطة بماء الورد من حلوق القلل .

مشاوير البلد عادة لاتجلب العطش ، وفكرة الثواب بشربة الماء مسألة هينة ، فيكفى للغريب أو لأحد من أهل البلد أن يميل على أول باب فيطلبها ، لهذا فإن الكثير من المارة كانوا ينحنون على قللها ، جبر الخواطر ، والثواب على الله .

وكانت هى تتابع الشارب ممتنة ، وتلمع عينها بنور البهجة وبعد أن ينتهى تقول : بالهنا والشفا . . تفضل ياخوى . . تفضل .

فلا يملك غير الدعاء لها ، ويتركها فى حال سبيلها ، وتحاول مع النسوة الشاربات ، فتدعوهن للجلوس إلى جوارها ، فى ظلة دارها ، ولكنهن دوماً على عجلة من أمرهن ، فتضع الواحدة منهن القلة ، وتفر إلى بيتها محملة بما اشترت من خضروات السوق .

أيام كثيرة انقضت ، فقدت فيها القلل رونقها ، وكلح لونها وبانت على أجسادها علامات الأيادى ، ونشع فى مسامها الريم الأخضر ، وانقصفت رقاب البعض منها ، وانشرمت حلوق البعض الآخر ، ومضت فترات طويلة توزع القلل فى الطشت وهى جافة فارغة من الماء ، والمرأة على عتبتها مكبة على كهولتها ، تحت طرحة قذرة ، كانت يوماً تضئ الوجه ببياضها .

لم يلتفت أحد إلى اختفاء القلل ، ولا اختفاء المرأة التى انغلق عليها بابها الخشبى القديم ، وظن البعض أنها ربما سافرت إلى أولادها ، أو أن أحدهم عاد إليها فأخذها لتعيش معه حتي يحين قضاء الله . ولابد نافذ .

وعلى غير توقع انفتح البـاب ، فى اللحظة الفارقة بين الليل والنهار ، وخرجت فى ثياب مهلهلة قصيرة تمشى فى الشارع حافية القدمين ، حسيرة ، قصت شعرها تماماً فبدا رأسها صـغيراً جداً ، وتسيطر عليه رعشة لا إرادية ، تذبذب سحنته ، وتدفع حدقتى العينين للإهتزاز .

رأيناها تسير تحت الجدران تنظر إلي الأرض وتنحنى عـلى أكوام القمامة ، تقلب فيهـا ، وتخرج منها ما تجده مناسـباً ، فتجمـعه فيها تبـقى من هيئة الثوب ، وترفع مقدمه فتبان أفخاذها ضامرة ، وحين يكثر حملها من أشياء الأرض تطوى بقية الثوب ، فـتبرز سوءتها ، ولا يملك الجالس أمامـها غير أن يمسكها من يدها غاضاً بصره فى حياء : تعالى ياحاجة . .

ويدخلهـا دارها ، ويغلق عليـهـا البـاب ، وهو حين يحـاول ذلك لا يستطيع الإفـلات من قبضتهـا المخلبية ، فهى تسحـبه إلى الداخل : ادخل . . سأطـبخ لك . . وعندى فراش نظيف . فـيملص نفـسه منهـا عنوة ، ويعود وهو يضرب الكف بالكف صارخا

فيمن حوله : ياإخوانا حد يبعت لأولادها .

وانغلق الباب هذه المرة ، وطال غلقه ، فارتاح الجـيران ، وتعشموا فى أن تستعيد حالتها من سمت الوقـار والمهابة ، فمظهرها الأخير لايسر عدواً ولا حبيبـا ، بل هو وصمة لكل من يعيش حولهـا ، كيف تترك على هذا الحال ! وكيف يمكن التصرف معـها ! لا أحد لديه الرغبة ولا الطاقة فى أن يستضيفها فى بيته حتى يظهر ولد من أولادها .

ولكنهم اضطروا لإقتـحام الباب وتحطيم ضلفـتيه حين انبعـثت الرائحة ذات صباح صيفى حار ، ووجـدوها فى حجرتها ممددة على ظهرها ، وقد تحللت هلاهيل الثوب ، ذلك أنها لم تحتـمل انتفاخة البطن الذى تبعج إلى آخر طاقة العضل فيه .

الآن أنحدر إلى الأرض التى زرعـها أبى قصبا فى سـنى شبابه الأول . لماذا القـصب وهو من زراعـات الجنوب ؟ لاأدرى . لم اعـرف أحـداً زرع القصب بعده ، ربما بعد أن نظمت الزراعـة وصار لها دورات امتنعت عليه أرض الدلتا .

هذه الأرض لم تعد فـارغة كمـا كانت فى الزمن الغابر ، قـسمت إلى شوارع ، وقامت عليها عمارات شاهقـة تؤجر شققها للأغراب ولابناء البلد من الجيل الجديد .

رأيتـها وهى مـسيـجة بسـور من الحديد والسلك الشـائك ، نطل من حواجـزه على أشجـار المانجو والجـوافة والبرتـقال ، تأخذ مـاءها من قناة محفورة تحت الأرض ، لها فتحات ضيقة موزعة على مسافات من الشارع ، كانوا يحذروننا من السقوط فيـها ، وكنا نبص من الفتحة لنرى الماء الجارى ، يسيل رقراقـاً وصافياً ، نمد إليه اليد لتـصنع موجات صغيرة ، ونسـقط فيه قرش السوق الذى نحصله من الطاحونة ، فيستقر في القاع الرملى ، وتراه العين تحت الماء السائل ، ثم نعـود لرفعه ، نمسحـه بذيل الجلباب ، ويظل فى القبضـة العرقانة حتي ندفـعه لصانع العسليـة أو للبقال ليبيـعنا كرملة « ندلر » أو بسكويت « ايكا » .

وسمعنا عن حفيظة التى قتلـها صاحب الحديقة حين تجرأت على النزول من سطح بيـتها القـريب ، وضعت السلم الـنقالى فى ظهـر الجدار ، فى اللحظات الأخيرة من ساعات الفجر ، وقبل بزوغ الشمس بقليل ، فزوجها المريض قضى الليل بـطوله ، ينازع ، ويخرج من فمـه الخالى من الأسنان أصواتاً مبهمة ، وحين جمـعت أصابع يدها على أذنيها ، ومالت على فمه لتصيخ السمع أتاها الصوت جلياً : ما نجه . . حبة ما نجه .

وربتت على صدره بحنان مطمئنة إياه : والله لتكون عندك الصـبحية . وجمعت بقايا قـوتها فى الجسد العجوز ، وعقـدت العزم على تلبية طلب الغالى : ربنا يسامحنى . . الرجل ليفطس ونفسه فيها .

زحفت على درجات السلم الخشبي حتى وصلت نهايته ، ثم نامت على بطنها لتسحبه إلى أعلى ، وجرته على القش لتدليه بهدوء من الخلف حيث ظهر الدار المطل علي الحديقة ، وسارت خفية إلى أن عثرت على شجرة المانجو العالية ، ومالت على الأرض لتجمع حجارة تعاونها فى قذف الثمرات الناضجة ، فأحدث ذلك جلبة سمعها صاحب الحديقة ، وكان قد ترك قريته البعيدة ، وأقام لنفسه خصاً صغيراً كى يرقب لصوص الفاكهة ، لأنه لاحظ أن أشجاره تنهب بلارحمة ، وكان قد قرر بينه وبين نفسه ألا يترك من تقع عليه يده ، صغيراً كان أو كبيراً ، وحلف أنه سوف يصور قتيلاً فى هذا البلد . بعدها ، وحين يفلح فى الإمساك بأحدهم فسيشفى غليل صدره ، ويرتاح ، ثم يشرع فى بيع هذه الأرض ، ويعيش فى قريته مبجلاً ، ولاينزل هذا البلد الجائع أبدا .

فى هذا الصباح ، كان قد انتهى من صلاة الفجر حاضراً ، ومكث فى خصه ، ينقل لقيمات صغيرة إلى فمه ، وعندما سمع صوت انحدار السلم على الأرض ، توقف عن المضغ ، فسمع الأقدام تخوض فى الحشائش الندية ، ورأى الهيكل النحيل يميل على الأرض ويحذف الطوب بدأب ، فقام وبيده عكازه المعقوف ، يمشى بحذر ، ويخفى جسده خلف كل جذع يلقاه ، الرؤية لم تكن واضحة بعد ، وبخار الماء يتقلب على سطح الأرض كأنه ماء يغلى ، وعيناه الكليلتين لم تسعفاه على تحديد السارق ، ولكنه حين وصل إلى أقرب جذع ، صرخ بعزم قوته : أنت ياولد . .

فطبت حفيظه ساكتة على الأرض ، فخيل إليه أن اللص يراوغ ، ينام على بطنه ليزحف إليه فيتمكن من ساقيه ، فكان لابد وأن يبادره بضربة تعجزه ، فضربها بطيش فى الجسد العجوز ، صائبة فى الحجرالقريب الذى تزحزح عن مكانه – وكان أبدى الركود – مندفعاً إلى الرأس الحسير ، فأنهى . . نبضاته الواهنة ، وكانت توهم صاحبته بالقيام .

في زمن لاحق ابتاع ابن حفـيظة الأرض ، وقسمهـا قطعاً ، كل قطعة مؤهلة لتأسيس بيت ، ابقى لنفسه قطعـتين ، اقام على إحداهما بيتا وعلى الأخـرى حظيرة لماشـيتـه ، وظل أبوه - الذى عاش بعـد رحيل زوجـه - وحيداً فى داره ، كان سعيداً لنجـاح ولده ، كما كان حزيناً ، لأن مجلس المدينة اجـبر ولده على ترك مـساحـة من الأرض تتـسع لبناء بيت ، هذه المساحة خـصصت لشارع يتوسط الأرض ، إذا اغلقت تبـقى البيوت داخل الأرض ، حارة سد .. لامنفذ لها .

وكان يأتى كل صبـاح إلى المقهى الذى فتح على رأس الشـارع ، يتخذ لنفسـه كرسيا على الـناصية تاركاً جـسده للشمس ، ويحكي لمن يصـادفه الجلوس على نفس الطاولة ، إن مـســاحة الأرض التى نجلس عليـها الآن هى ملك لنا ، نهبـتها الحكومـة نهباً ، إننى استطيع - لو اردت - إجـبار ولدى على غلقـهـا ، ولكن ماذا يفـعل الآخـرون ؟ هؤلاء السكان الذين هبطوا علـينا من كل النواحى ، إنهم أغـراب ، وضـيـوف عـلى بلدنا ، وينبغى إكـرامهم ، ولكن - لو اردت - استـيطع أن اقيم سوراً من الحـجر المسلح ، فنسد الشارع . ولايهمنا حكومة ولاغير الحكومة . اقول لك إنها ملك خالص لنا .

كل صبـاح يأتى زاحفاً من داره القـريبة ، مائلاً على عـصاه ، ليقتـعد نفس الكرسى ، فى نفس البقعة ، ولايطلب لنفسه طـلباً أبدا ، فهو يعتقد أن المقهى قد اقيم على أرضه ، ولا يحق لصاحبه مطالبته بشئ ، مما سبب إزعاجـاً شديداً للقهوجى ، وكـان يشير للمـتحلقين حول الرجل بأصـابعه الملموة إلى جانب صـدغه ، دلالة على ألا يتخذوا كلامـه جداً ، فالرجل -قد بلغ من العمر مايدفعه إلى الخرف والعيش فى أوهام لاتناسب أهل هذا الزمان ، فكان يصهين عليه ، ويفوت له الكثـير من شخطاته وأوامره حتى فـاض به ذات يوم ، فنزل إليـه من النصـبة وواجـهه : كـفـاية يا آبا .. صدعت دماغنا .

فلعن الرجل سنسفيل أجداد القهوجي ، ولم يترك كلمة من قاموس المعايرة إلا وذكرها دون تردد ، والناس تجمعت حول القهوجي : زى والدك .

- والدى سافل وقليل الأدب !!

واستطاع الكهل أن يرفع عصاه ليدفعها فى بطن القهوجي مما سبب ألما شديداً ، فجن جنونه ، واندفع إليه ليرفعه عن الكرسى : لا ارى وجهك هنا أبدا . . .

- تطردنى من ملكى ياعويل .

سحب القهوجى الكرسى إلى الداخل ، وتوجه بحديثه إلى الناس مغضباً : كل واحد يروح لحاله .

بينما ظل الرجل فى جلسته على الأرض ، تحت حائط المقهى ، يلعن الزمن الذى جعل مثل هذا الصايع يرفع عينه على أسياده .

ثم اعتاد المجيئ كل صباح إلى نفس المكان ، ويفرد حصيراً صغيراً ، يأتى به تحت إبطه ، ليتمدد عليه طول النهار ، وكلما رأى أحدهم مقبلاً من الشارع الرئيسى ، أومن الشارع الفرعى الذى كان يوماً أرض القصب ، ثم صار حديقة للفاكهة ، وهو الآن حارة على صفيها بيوت وعمائر ، يطلق الرجل هتافه ليؤكد للجميع : أنا قاعد فى ملكي . . حد عنده مانع ؟

ينفتح أمامى الطريق ، فأرى الميدان ، ميدان المحطة ، يهبط من علٍ ، بارتفاع يحسه القادم من جهة البوابة ، يندفع دون إرادة منه نحو العمود الخالى الذى يتوسط الميدان .

بعد أن نقلت بيوت عمال الدريسة المشيدة بحجارة بيضاء كبيرة ، إلى خارج البلد ، ورفع السور الحديدى الملتف حولها ليحميها من اصطدام

السيارات ، اتسع الميدان ، وقسم المدخل إلى طريقين ، وغرست فى المنتصف نباتات زينة خضراء ، جعل هذا العمود كقاعدة لتمثال منتظر .

وكنا نتساءل فيما بيننا هل فى تاريخ بلدتنا من يستحق هذه القاعدة ؟

لم نجد فى تاريخها الخاص أبناً من أبنائها ، أوحتى من أبناء القرى التابعة لها من هو جدير بها .

فظلت خالية بانتظار الشخص المجهول .

اتسع الميدان إذن ، وتوارى عنه الكثير من معالمه القديمة ، دكان (أبو الخير) للحلاقة ، كانت له فراندة ، لا تمل الجلوس عليها ، يجلس الرجل الكبير على دكتها ليراقب الخلق ، الرائح والغادى ، المسافر والعائد من سفره ، حركة القطارات القادمة من الجنوب أو العائدة من الشمال ، إلى جواره يجلس ولده ، لا يقوم حتي يصل الزبون ، سواء من يريد الحلاقة أو من يحتاج العلاج ، وفى هذه الحالة يربط أهل القرى مطاياهم فى العمود القريب ، ويدخلون مع الرجل الكبير غرفة على الناحية المواجهة للمحل ، فيعطيهم الإبر أويمس لهم عيونهم بالمراهم أو بالششم ، أو يغير لهم على الجروح ، فيرفع الضمادات ، ويضع القطن المغموس بالمكركروم أو بصبغة اليود .

حين رحل الرجل الكبير ومضى زمانه بقى ولده وحيداً قليل الحيلة فيما يختص بالعلاجات ، لا يجيد غير الحلاقة ، كما أن لافتات الأطباء انتشرت على الشرفات ، وفى كل الاحياء .

وكان جالساً يوماً على دكة أبيه ، ورأى واحداً من أهل القرى يربط دابته فى العمود ، فقال لنفسه : أما زال هناك من لايعرف برحيل أبى !!

ترك القروى المرأة العجوز فوق الحمارة ، وتقدم منه .

- عدم المؤاخذة . . أمى تشكو من عينيها .

- ولكن . .

- البركة فيك ، أهلنا كلهم لا يشفون إلا على أياديكم .

واحتار ابن الحلاق ، فالغرفة الصغيرة التـى استعملها أبوه كعيادة خاصة به ضمت إلى ميراث أخيه ، وشـيد مكانها عمارة ذات طوابق ، ولا يملك فى يده مـا يعـالج به هذه القـروية ، والرجـل لم يكف عن الدعـاء له ، واستجـداثه فى تخليص الأم العجوز من آلامهـا ، فأهل قريته أجـمعوا أن لاعلاج لهـا لدى الأطباء ، عـلاجهـا هنا فى دكان الحـلاق ، اكدت ذلك خبرتهم العريقة وممارستهم مع الأب الفقيد .

وادخلهم ابن الحـلاق دكانه ، ثم سحب الموسى خـفيـة وخرج به إلى العـمود الذى يرفع واجـهة الفـراندة . حك الموسى فى الكلس الأبيض ، فانهال علـى الورقة الصغيرة التى أمـسكها بين أصبعـيه ، طوى الموسى ثم اعاده إلى جيبه ، ولف الورقة على هيئة حجاب .

- شوف ياأخ هذا الدواء تأخـذ منه على قدر ملعقـة الشاى وتذوبه فى الماء جيداً ثلاث مرات فى اليوم ، وبالشفا إن شاء الله .

عاد الرجل إلى قريتـه ، وعاد ابن الحلاق إلى دكتـه ومر يوم ويومان ، وفى نفس الموعـد ، عاد إليـه القروى ، ولـكنه - هذه المرة - جاء ممتطيـاً حماره ، تتـقدمه سلة كبيـرة يغطيها الباشكير ، رمى عليـه السلام قبل أن ينزل عن مطيـته ، وقـام ابن الحـلاق يعاونه ، فـكاد الرجل يميل على يده ليقبلها .

- الحمد لله .

ذهل ابن الحلاق ، وسأل بحذر .

- يعنى الحاجة قامت بالسلامة ؟

- فى إيدك البركة يا ابن الناس المباركين .

وراح يفرغ السلة ، فانطلق منها ذكر بط كبير فرد جناحيه العظيمين ، ودخل الدكان مهللاً ، ليثير زوبعة من الشعر والغبار ، وهناك فى آخر زاوية من الدكان نام على بطنه ، كأن أحداً أوصاه بهذا مسبقاً .

لليل حياة خاصة فى هذه البلدة ، فهو لايملك غير التسكع فى شوارعها الترابية المدحرجة ، المقاهى القريبة من المحطة تكتظ بالرجال ساعة أو ساعتين ، ثم ماتلبث أن تفرغ عقب المسلسل اليومى ، أما المقاهى المتناثرة فى الشوارع الداخلية ، فإن لها زبونها المستديم ، يشرب الطلب أو الطلبين ، ثم يؤوب إلى داره مبكراً ، قد يلعب الدومنو أو الطاولة أو يدخن المعسل ، ولكنه - فى كل الأحوال - لايطيل السهر .

المسافر العائد بقطار العاشرة مساء دوماً يفجؤه السكون عند نزوله على رصيف المحطة ، بينما أذناه تدويان بصخب المدن التي قدم منها ، فالبلد هجعت جميعاً ، والمقاهى أغلقت أبوابها عدا هذا المقهى الذى يواجهنى الآن .

أبوابه مفتوحة مباشرة على بوابة المحطة ، وهو أول ما تقع عليه عين الغريب ، كان يوماً محلاً لبيع النحاس ، كنت ترى صاحبه يقتعد كرسياً بالداخل ، يقلب أوراق الصحيفة التى لاينتهى منها أبداً ، يمد وجهه بالنظارة كعب كوباية ، ويظل يطالع سطراً سطرا ، كما كنت تراه واقفاً في استقبال العربة الكارو المحملة بالرجال والنسوة والعيال الصغار . جاءوا لابتياع أوانى العرس ، صاخبين بالزغاريد ، يدقون على طبلة كبيرة ثبتتها إحداهن على جنبها بينما تحلق الآخرون حول صبية لا يهمد بدنها من الرقص ، يقف تاجر النحاس بعد أن يضع صحيفته جانباً ، يستقبل زبائنه بوجه بشوش .

- ربنا يتمم بخير .

ويتقدم كبير القوم رافعاً عباءته على كتفيه فيسلم عليه ، ويتخذ لنفسه مقعداً إلى جوار المكتب المرتفع عن الأرض ، وتشق أم العروس الزحام لتقتحم المحل ، لتكون فى مقدمة المشترين ، وتتخير لابنتها مايؤسس بيتاً جديداً .

اميل إلى اليمين لادخل العمارة الصغيرة التى صفت أدوارها صفاً كأنها علبة الكبريت موضوعة على جنبها . قفزت فوق غطاء المجرور الذى فاحت رائحته فى المدخل ، وتهيأت لصعود درج طويل لاتقطعه غير بسطة وحيدة ، انحنت النسوة الجالسات على الدرجات ، واخفين أطفالهن الرضع ، تحت نور أصفر شاحب ، يؤكد المرض ولاينفيه ، أما النور الحليبي الواضح فكان ينبعث من أعلى ، يتدفق من باب الشقة على وجوه الرجال الذين ردوا على تحيتى بهمة وحماس .

حين رآنى التمرجى قام عن منضدته مرحباً ، وبدل سحنة الرجل المهم الواقف بين رعاياه ليضع ملامح خنوع متكلف ، غرس القلم أسفل الطاقية ، وفرك كفيه محيياً .

- أهلا يابيه .

وطرق الزجاج المضئ لباب غرفة الكشف ، وادخل رأسه لينبئ الطبيب بقدومى ، ولمحت بطرف عينى الفخذ العارية للمرأة النائمة على منضدة الكشف ، فعدت بظهري إلى الوراء .

- سأنتظر هنا حتى تنهى ما بيدك .

بعد فترة وجيزة خرجت المرأة من غرفة الكشف وهى تلقى نحوى نظرة بطرف عينها من تحت طرحة جمعتها على معظم وجهها بينما سار خلفها رجلها عاقداً حاجبيه فى غضب كظيم .

تلقانى الطبيب فى حضنه ، وسحب لى كرسياً مبطناً بجلد أسود ، ضغط على الزر ، فاقتحم نور الحجرة المبهر رأس التمرجى ، قال له الطبيب :

- لا تدخل أحداً الآن . . واعمل اثنين شاى بسرعة .

- أنا لااريد أن اعطلك عن عملك .

- ياسيدى . . نحن لانراك إلافى . . .

- الكوارث .

- اظنهم ارسلوا إليك لتحضر الوالد .

- عرفت أنك تتابعه .

- ليس هناك مرض بالتحديد إنما هى الشيخوخة ، كل شئ قد انهار .

- لافائدة .

- يوم أو يومان بالكثير . .

واعدت الكرسى إلى مكانه ، وتهيأت للخروج .

- بدرى .

- خلص شغلك على أن تمر علىّ قبل عودتك للبيت .

- لازم .

* * *

رأيته خـارجاً من الركن المظلم ونور المقهى ينـعكس على زجاج نظارته السميكة ، هو نفسه بجرمه الضخم ، يعتمر عمامة كبيرة يلتف شالها على طاقية من قماش أبيض . يتهدل على بدنه جلباب واسع الأكمام ، رفع كفه القـابضة على الجـريدة ، وتقدم منى وهو يجـرجر حـذاءه الجلدى الكبـير ، فزعت منه وكدت أعـود إلى الباب ، ولكن سحنته الوديعـة امحت الخوف عن قلبى ، فلبثت فى مكانى مشلول الحركة ، مال على أذنى وهو يطبطب بيـده على ظهرى : ألف سـلامة للوالد . . قل له واحـد صاحـبك يسلم عليك .

واختفى الرجل من أمامى فجأة . .

ولما استـشـعرت الـدم يموج بشرايين جـسـمى بدأت احرك قـدمى فى خطوات مـتقـاربة ، مذهولة ، لـولا دبيب الناس من حـولى ، وأصـوات التلفزيون والمذياع ما صدقت أن الحياة تدب فى كيانى .

جـزعت من دخـولى الشـارع الأخـر الذى يعـود بى إلى دارى مـا إن استعدت شـجاعتى ، وسيطرت على رهبة المكان من حولـى حتى انتفضت للواقف فوق مرتفع من الأرض ، تحركت عباءته السوداء ، فبان منها بياض الجلباب ، والعمة ، وبوز البلغة .

هبط إلى الأرض متجهاً إلىّ . وشعرت بكفه الباردة تدهمنى تنحنح ثم اخرج صوتاً وقـوراً : ارادة الله فوق كل شئ ، لقد عملت مـا قدرنى الله عليه ، اعطيته الإبرة ، وتركته هناك غـافياً . ومس بأطراف أصابعه شاربه المضئ ، وعاد إلى مكانه ، وتلاشى فى الباب المغلق لصالون الحلاقة .

إنهم يبعثون ، جاءوا تحت جنح الليل ، يلقون النظر على رجل منهم ، شوارع البلد تمتلئ بهم ، ولا فكاك منهم ، يبدو أن أرواحـهم المعلقة بحياة الأحبـة هنا لاتكف عن الحـومان فى مواقـع الحنين ، هل استـدعاهم ؟ أم عادوا ليحتفوا بالتحاقه بهم ؟ . . . ادركت فى هذه اللحظة أن أبى معهم ،

لم يعد بدنه متصلاً بنا، استحال إلى روح ، تقيم لفترة مؤقتة بيننا حتى يحين موعد الأوبة النهائية ، بل ادركت أنه ربما يكون قد فارقنا الآن . . إنهم يتوزعون فى الأركان ، لمراقبة شئ ما ، شئ تدركه أرواحهم ، ولا علاقة لنا به ، حثثت الخطى لعلى ألحق به ، فأراه ويرانى قبل أن تغمض عيناه على الظلمة الأبدية .

ووجدت صاحب الأرض التى كانت بستاناً جالساً على عتبة بيت ولده ، رفع رأسه نحوى ، بعد أن أفاق من تأملاته ، ثم نفض جسمه ، فقام فارهاً ، يرتدى جلباباً على اللحم مفتوح الطوق ، ومفكوك أزرار الكمين ، خلع طاقيته الخفيفة ، وبدأ يعيد جملته الأثيرة : انتبه . . أنت تسير فوق أرضى . انحنى على ، فنظرات إلى أعلى ، كان وجهه سقفاً أخفى كل شئ ، لم أر مساحة من السماء ، ولا من الفضاء الواسع ، وجهه الكهل فقط .

– سلم عليه . . وقل له لقد صارت أرض القصب التى سال عليها عرق شبابك ملكاً لى . . وقل له أيضا لا تحزن على مافاتك من علم الكُتّاب ، لولا هجرنا له ماصرنا من أصحاب الأطيان .

وتجاوزته وأنا لا أود أن افلت الضوء الذى أراه بعيداً على ناصية الشارع ، سرت على هداه حتى لا اتخبط فى الجدران القريبة ، لأنى كنت اترنح كالسكران ، وقدماى تسيران بى بحكم العادة ، لا بسبب الإدراك الواعى بانحدارات الشارع ، اقتربت من النور إلى حد الونس ، وأنا اسمع لهاثهم من خلفى ، كانوا ينطلقون بآخر طاقة الشيخوخة فى جسومهم ليلحقوا بى .

ورأيت باب الدار مفتوحاً على آخره ، والمقهى المقابل ادار المذياع على المرتل ، وقبل أن امرق إلى الداخل وقعت عينى على التركى فى جلبابه الأبيض النظيف يخرج من البيت القديم ممسكا بيد المرأة التى ماتت وحيدة ، ويسبقاننى في الدخول .

سرت وراءهما حتى تلاشيا فى زحام النائحات .

* * *

فى ضحى هذا اليـوم وصلت محطة مصر ، بعـد أن حادثتها تليـفونياً وطلبت منها الإنتظار على قـطار الحادية عشر ، وكـانت بانتظارى ، ركبنا الاتوبيس ، حينئـذ رأيتهم يسيرون حول قـاعدة رمسيس الحـجرية ، كانوا صغـاراً جداً تحت قدمى التمـثال الشامخ ، يعبـرون إلى جوار الفسقـية ، النافورة لم تكن تعمل ، انحبست فيها غبطة الماء ، كلهم فى اتجاه واحد ، يخبون فى جلابيبهم التى ترتفع إلى مـافوق الكعبين ، لهم وجوه شاحبة ، رمادية ، تزيدها قتـامة تلك اللحى المرسلة ، هيئات مـختلفة من اللحى ، منها الكثـيف المتشابك ، والخـفيف الشعـر ، المتناثر على الصدغين كـعانة المراهق ، بعضـهم كان يصحب نسوة منـقبات ، يتبـعن رجالهن فى خنوع ورضا تحت خـيمة من قـماش ، لها لـون واحد ، منزوع البهـجة . ألوان تتدرج من الأسود إلـى البنى إلى الزيتى ، لاورد هناك ، ولازهر ، كائنات مطموسة ، عديمة الملامح ، ونمطية إلى حد الملل ، تندفع بهمة إلى الشارع الواسع . خارجـة من كل الإتجاهات ، إنهم يقـبلون من بوابات المحطة ، ومن كوبرى شبـرا ، وشارع الجلاء ، ومن جهة اليمين ، يأتون جـماعات من شوارع الفجالة القديمة .

والأتوبيس الذى نركبه فى تلك الساعة من الظهيرة الخريفية يتحرك ببطء بين أرتال السيارات الأخرى ، لانرى نهاية للإشارة .

وهى إلى جوارى تنفخ هواء القلق من شفاه رقيقـة رسمها القلم ببراعة على شكل الوردة البلدي ، وأنا بالقرب منها اتنـشق ريحها ولا اجرؤ على بدء الحوار معها لتهدئة روعها .

كلما نظرنا أمامنا أو خلفنا أو فى أى جهـة عن اليمين أو الشمال لاتقع عيوننا إلا على سيارات تلفظ مواتيرها الوقود النئ ، ويسقط على أجسادها اللامعة شعاع واهن لشمس متوارية خلف كتل السحاب الأسود .

كانت أجسادهم تخترق الطرق المعقدة بين السيارات . منهم من يسير بمفرده غارقاً فى الحقب التى يهفو إليها قلبه ، مما يجعل سحنته مقلوبة على ملامح غضب كظيم ، فهو يبدو كالغريب بين الآلات الضاجة التى تقلق طمأنينة اليوم وسلام الحلم بالعودة إلى الأمس . حيث لا يسمع غير الأصوات الأولية ، أصوات من خلق الله ذاته ، ولا دخل لعقل الإنسان بها . ومنهم من يسير متأبطاً ذراع حليلته يتهامسان بكلام لاينتمى لأحد غيرهما ، وعين الرجل تشع بسعادة الثقة بما قد أتاه فى ليلته ، هاهو الآن بعد أن تطهر بماء الغسل وماء الوضوء يصحب حلاله نحوقضاء الفرض . جسدها الملفوف فى الثوب الأسود ريان بروعة الارتواء والشبع .

ومنهم من يغدو فى الطريق جماعة ذكورية كاملة تتدرج فى الأعمار ، الجد ثم الأب ثم الولد والحفيد ، جميعهم يكبسون الطواقى البيضاء المخرمة ، وجميعهم يرتدون الثياب البيضاء عليها ، سويتر ، جلدى ، وتتدلى من تحت ذيولها سراويل بيضاء لها غلق على بز الكعب ، يصحبون الحفيد الغارق فى بياض الطاقية والجلباب ، نحت مصغر للعائلة ، لاينقصه سوى اللحية وإن بدا وجهه متجاوزاً لطفولته ، نجح فعل الأسلاف على تهيئة قسمات جادة وصارمة ، مفارقة للعمر ، وللحياة فى سذاجة الأحلام الطفلية .

الاتوبيس توقف تماما قبل الدخول إلى أول الشارع ، هنا يتكثف الزحام ، فالكل يتدفق من تفريعات الميدان ليصب فى شارع واحد .

الأجساد الفائحة بريح المسك والعنبر تموج كتلها المتلاحمة فوق الأرصفة وفى منتصف الشارع وأمام السيارات وخلفها وإلى جوانبها .

خرج من الباب الأمامى رجل طاعن في السن لحيته تسقط حتى انحناءة الكرش ، له وجه غاضب ، لاينطق - حين تحدث - بوقار يليق بهيبته ، يندفع الكلام من فمه المظلم ذى الشفايف الغليظة كدفعات رصاص ،

لايرحم ، صوت زاجر ، آمر ، يحمل فى طياته تهديداً صريحاً ، وذكراً بالنهاية المفجعة لكل حى .

قال : إنك ميت وإنهم ميتون .

وقال : إن العبد ليعالج كرب الموت ، وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة .

سار بين الكراسى يرمى الكتاب على أفخاذ الراكبين ، لايفرق بين رجل وامرأة ، أو شيخ وطفل مذكراً الناس بعذاب القبر والثعبان الأقرع والسلسلة التى طولها سبعين ذراعاً وأهوال القيامة وماسيحدث لأهل النار وماسيحظى به أهل الجنة .

استحالت أمامى الأجساد الحية الى هياكل عظمية يرعى فيها دود أسود كريه ، وحبيبتى التى ادخلتنى حدائقها فامتعت عينى بمشاهدة أزاهيرها ، ونشق أنفى أريج عطرها الفواح رأيتها جمجمة مركبة على هيكل ، ضاعت ألوان الثوب الجميل ، وسقطت عنها نهودها ، وتلاشي خصرها ، واختفت أساورها وعقود جيدها . عدت بنظرى حسيراً ، فرأيتنى على نفس الحال ، نظرت إلى الخلف ، إلى الأمام ، كل الركاب صاروا عظاماً فى عظام . حتى البائع والسائق ، والدود ظل يسعى على الأرض ، وفوق الكراسى ، وعلى حواف النوافذ ، وعلى الأجساد البشرية السائرة فى الشارع .

رأيتهم جميعاً هياكل عظمية تهرع فى خرائب . .

والبيوت التى عن يمينى تمددت عليها خيوط العنكبوت . .

ورأيت الفجالة قد انخسفت الأرض بها ، فاختفت منازلها ، لم يبق غير سبيل أولاد عنان ، وصار مسجد الفتح أنقاضاً على شاطئ النهر الذى

كان يسير يوماً فى نفس الموضع و ورأيت الباعة فوق الكبرى الخشب ينادون على الليمون الذى تفيض به قففهم ، وعلى آخر المدى كانت أرض الطبالة ، بزرعها العشوائى ، تسمق خـلاله نخلة هنا أو شجرة هناك حتى بان لعينى ماء الخليج المصـرى ، وعلى شاطئه الشـرقى رأيت القاهرة ، من البسـتان الكافورى حتي مآذن الأزهر وباب الفتـوح المطل على صحراء الدراسة تبدو أمام أسواره - التى ترفع مئذنة الحاكم - شواهد قبور حديثة العمارة .

صخب الأتوبيس بصوت الفرامل المفاجـئة فتناثرت عظامنا ، واختلطت ، اعقـب ذلك صمت مـهيب ، فرأيـنا بائع الكتب يجمع أشـلاءه ، ويلملم صفحات كتابه وينزل إلى الأرض .

فالتـحمت بالشاطئ جـزيرة بدارن التى كانت عائمـة وسط ماء النيل ، وعاد الفرع الشرقى إلى مكانه ، وأزيلت الترعـة الحلوة تدريجياً ليمتد على جسدها شارع نـازلى ، على جوانبه منازل تنتمى ، عمارتهـا للقرن التاسع عشر ، ويتفرع منه شـارع كلوت بك بالبواكي العريقة وخط الترام الذاهب إلى العتبة ، وتشكلت مباني مـحطة مصر ، وضجت قطاراتها الراحلة إلى الدلتا والصعيد ، وبعد فترة وجـيزة ، صار الشارع يحمل اسم رمسيس ، فعاد إلى شكله الحالى ، يقف على واجهتـه الجنوبية مسجد الفتح ، وعلي بدايته الشـمالية محطة المتـرو على الطراز الحديث ، وتبدأ منه وتنتـهى فيه كبارى علوية تضبح بالسيارات المسرعة .

استعدنا ملامحنا ، واكتست الأجساد بلحمها الآدمى ، وبأثوابها الملونة ، وعاد العطر يحـوم بأريجه ، ورنوت إليهـا بعينى ، فتـلاقت النظرتان على الدهش وكأنما كل واحد يريد أن يقول للآخر : هل بعثت ؟

قلت لها : إننى سعيد بإستعادتك .

فدنت منى ، ولامـست كفهـا كفى ، فاشـتعل النبض ، حتى سـمعنا ضربات قلوبنا ، وتأكدت لى الحياة ، هذه أنفاسى فى صدرى تتردد شهيقاً

وزفيراً ، وأمسح قطرة عرق عن جبـيني ، واشم رائحة البشر من حولى ، رائحة الإنســان الحى ، وأصواته ، ضجيـجه ، قيـامه ، وقعوده ، خـوفه ورجاءه .

مد السائق يده إلى مـذياع السيارة ، فملأصـوت المغنى المكان ، كنا قد وصلنا بالقرب من كنيسة الأرمن ، تطلعت إلى بنائها الفـخيم ، تطل من أسوارها العالية أشجار دسمة الخضرة ، تصدح بين أوراقـها عصافير مختبئة ، رفعت عينى إلى أعلى لامـتع البصر بهندسة برجها الجـميل ، كان الجرس الكبير بين فتحات البرج صامتاً تماماً يتدلى كخصية الفرس المكتنزة .

بالقـرب من المسجـد الذى تجمـعـوا حوله اقـتحـمت آذاننا صرخـات الميكرفون فـوق المظلة الخضـراء ، وتأكدلى أنه نفس الصوت لـبائع الكتب ، كان يقول : أيها الناس لو تعلمون مـا أنتم راءون بعد الموت ما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شـربتم شراباً على شهوة ، ولادخلتم بيتاً تسـتظلون فيه ، ولحرصتم على الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم .

خارج الأبواب وقف البعض منـهم ينظم دخول الجماعات المحتشدة ، ويصرخ فى المـارة دون مبرر ، والبـعض يرش من عطرهم روائح انبـعثت أشباحاً ووجوهاً لعفاريت من الجنى أحاطت بنا من كل جانب .

عند فتحة الشـارع الجانبى حيث الباب الذى تصعد منه الـنسوة المنقبات حانت للسـائق الفرصة فـوجد أمامـه فراغاً يمكنه من المروق فـداس بأقصى طاقـته ، قـفـز على إثرها الاتوبيس قـفزة هائلة حـتى خيل إلى أنه طار بجناحين فوق السيارات الواقفـة ، وانطلق فى الشارع متجاوزاً كل الموانع ، ولم يهـتم بصفـارة العـسكرى ولا بلعنات الملتـحين ، وبرغم الرعب الذى قبض على قلوبنا هتفنا مؤيدين لهذه القفزة الشجاعة .

وفتاتى صرخت من هول الإندفاعة ، وانتفضت فجأة . لاجدها بكامل جسدها الحى لابدة فى كيانى الزاعق بدم الرغبة .

القسم الثانى

- ١ -

كانت شمس الصباح تبرق وراء أشجار العبل من الجهة الشرقية ، يخطفنا وميضها المتتابع مع سرعة القطار ، وحين تقل السرعة ، تبدو بكامل دائرتها المنيرة هادئة بين السحب البيضاء الخريفية . .

نقترب الآن من الجزيرة البيضاء .

* * *

وكنا قد غادرنا القاهرة وهى مهيأة للدخول إلى مخدعها ، انخلعت أنا وفؤاد من شوارعها بينما أهلها يتعجلون الخطو للحاق بآخر الحافلات ، يرفعون بأيديهم أكياساً وحقائب ، ويضعون تحت إبطهم جريدة الغد ، وكان الصبية من باعة الصحف ينتشرون على الأرصفة ومفارق الطرق يهتفون بالعناوين الرئيسية وجريمة الأمس .

الأيام الأخيرة من سبتمبر ، والطقس الخريفى المعتدل يشجع على السفر فى تلك الساعة المتأخرة ، فلا هو بالقارص البرودة ، ولاهو بالحار الخانق للأنفاس ، وانتعشت صدورنا بالنسمة اللطيفة اللاهية حول رمسيس الواقف فى ظلمة قاتمة محبوساً بين الكبارى العلوية ، ومعابر المشاة ، وأضواء الأعمدة كانت قليلة وخافتة تشكل مع الأنوار المنبعثة من عربات الطعام بحيرات صغيرة من النور بين ظلمة شاملة .

القاهرة حزينة ، تعيش زمن الخوف والتوجس منذ أن كشف السادات عن جنونه الكامن ، وكشر عن أنيابه ، بعد أن تشدق كثيراً . بالديمقراطية، ورأى فيها مفتاحه السحرى للدنيا الجديدة التى وعد بها . عقب عودته من الولايات المتحدة ، وكرد فعل على أحداث الزاوية الحمراء التى فجرتها فتنة طائفية مشكوك فى مدبريها ، اصدر أوامره بالقبض على ألف وخمسمائة من خصومه السياسيين : زعماء معارضة ، وكتاب ، وشيوخ ، وأساتذة جامعات ، وطلبة . واطلقت صحافته على هذا الفعل المتهور ، «ثورة الخامس من سبتمبر» .

اقتلعت من معمعة الحوار الصاخب مع الزملاء الذين بقوا فى الخارج ، ومن الإنشغال بمتابعــة أخبار المعتقلين ، وتخمين التوقعـات لمستقبل غامض لكل من الحكم والمعارضة .

بعدما جاءنى فؤاد من بـلدتنا - فى وقت متأخر من هذه الليلة - دخل علىَّ شقتى هادئاً كـأنما قدم لزيارة عابرة ، وبعد شربنا الشـاى مع أصدقاء المدينة انسحـبوا إلى بيوتهـم ، يطوون فى صدورهم رهبة الأيام القـادمة ، قال فؤاد بنبـرة جاهد فى أن تكون عادية : مررت على بيتكم عـصر اليوم ووجدت الوالدة بعافية ، أمرتنى بالجلوس إلى جوارها على الفراش وكانت تتملى وجهى كأنها تراك .

تيقظت حواسى كـلها ، وتحايلت على نفسى حتـى لا ابدو أنى كشفت شيـئاً يخفـيه بحرص خلف كلمـاته ، و سقطت حـواراتى مع الزملاء ، وتوارى الإهتمـام بأمور السـياسة ، وانتـبهت لكونى ولداً ينتـمى إلى بلدة بعيدة ، لى فيهـا أم عجوز ، تعانى المرض ، بل سكرات الموت ، ربما كان فؤاد من الدهاء أنه اخـفى بقناع وجهه الإعلان عن احتـضارها ، وتواطأت معه فى هذا الشأن ، وكأنما حـدث اتفاق سرى بينى وبينه ، عليك أن تجيد التخـفى وراء سحنـة الثبات ونقـل الخبر المفـجع بأداء محـايد ، وعلىَّ أن اتماسك ، وألا ابدى لك أنى عليم بما تسره نفسك .

ووفقت فى أن احيل اقتراحى بالذهاب إلى البلد فى هذه الساعة بالذات إلى مجـرد رحلة ليلية ممتعة ، ولا قـيت منه ترحيباً شـديداً . كان هذا هو مايريد بالضبط ، لو كان الأمر عادياً لقـال كيف تعيدنى فى الحال إلى البلد وأنا فى زيارة لك ، ألاترى إجهاد السفر بادياً على وجهى ؟

ارتديت ملابسى على الفور ، ونزلنا معاً . .

دخلنا المحطة ، وفـاجأنا عـدد المسافـرين الذين يتـحركـون تحت المظلة الحديدية الشاهـقة في الساعات الأخيـرة من اليوم ، كانوايرفعـون الحقائب

ويجرجرون أطفالا صغاراً غلبهم النوم ، وتتقدمهم أوتسير خلفهم نسوة سترن رؤوسهن بإشاربات ملونة .

للمحطة غبطة لاتنقطع ، فهى مكان اللقيا ، وأول خطوة للرحيل ، بين جدرانها المرتفعة ، وتحت سقف زجاجها التقت قلوب ، وأفترقت قلوب ، فهى حرم اللقاء والوداع .

حين ادخل من بابها أحس وكأننى على عتبة دارى ، ولرحيل القطارات ليلا متعة شجية ، فأنت تؤدى فعلا فيه إيثارة بالغة . ، الناس نيام وأنت وحدك المسافر ، وبعودتك المفاجئة تسعد قلوباً لهفى للقاء .

سألنا عن القطارات المسافرة ، فقالوا لنا : لا يوجد قطار يأخذك إلى بلدك مباشرة ، يمكنك أن تركب الصحافة حتى بنها ، ثم هناك تبدل مع آخر .

لابأس . . .

هل أنستنى متعة الرحلة الليلية ما أنا مقبل عليه ؟

أنا أريد أن اسلو ، واحطم بالحركة سكون الحزن الباهظ ، حاولت تأجيله ، ودفعه إلى ركن من القلب ، وكان يغافلنى ، فتتقد ناره ، خافته واهنة أول الأمر ، ومع سرحات الفكر تتوهج الجذوة حتى يشيط الدم فى عروقى ، فأنفخ طارداً اللهيب ، ارفع ناظرى إلى عين فؤاد الثابتة على وجهى ، ليدير وجهه إلى النافذة فلايرى غير الظلام فوق الحقول ، وأنوارا قليلة لقرى بعيدة نائمة ، انقضضت عليه بسؤالى : ألم يزرها طبيب ؟

- الحكاية ليست بحاجة إلى طبيب . .

نزلنا بنها فوجدنا محطتها غافية تحت نور « النيون » الكثيف ، يسقط وهاجاً على أجساد القادمين من القاهرة ، ثم يخفت عند هبوطهم السلم متشبثين بالدرابزين خشية السقوط ، وبرغم ذلك فهم يتعجلون العودة إلى

الفراش الدافئ ، ذلك أننا بدأنا نشعر بالبـرودة ، وانقلبت النسائم الخريفية إلى تيـار هوائى لاسع ، هربنا منه إلى غرفـة الإستـراحة ، بعد أن سـألنا المعاون عـن قطارنا ، فقـال إنه يأتى الخامسة فجـراً ، نظرنا إلى ساعـاتنا فوجدنا أننا بحاجة إلى الانتظار لمدة ساعتين .

لابأس . .

الليل هنا موحش ، لا صوت له ، ليتنا بقينا فى محطة مصر ، لنتغلب على الملل بمتابعة المسافرين ، فوق كراسى « الكافيتريا » التى لاتغلق أبوابها .

رحت اقلب صفحـات الجريدة الصباحية ، فتـمطي الحزن من جديد ، وراح يتمدد فى الصدر حتى كاد أن يمزقنى ، كيف الهروب منهُ ؟

* * *

بعد رحيل الأب سمعنا منها كلمة ياحبيبى . .

لم تقلهـا أبداً فى حـياته ، وكنا حـين تجمـعنا لحظات الود العـائلى ، ويتباسط الوالدان معنا فى الكلام عن حـياتهما الغابرة ، ويقص علينا الأب كيف تـعرف عليـها ، وكيف طـلبها مـن أبيها ، بـعد عدد من الـلقاءات المختلسة ، ويسألها مبتسماً : أليس مـا احكيه صحيحاً يافهيمة ؟ تنكر ذلك وتقول بدلال : إنه يخلط الأمور . .

هذا مايخص زوجته الأولى .

فنسألها بطريقـة مباشرة لم تتقـبلها على الإطلاق : هل أحبيتـه ؟ كما أحبته هى فتشوح بيدها فى الفراغ ، ثم تضرب بها على صدرها : حب ؟!! بلا قلة أدب .

وقد بدا لنا هذا الحب جلياً بعد رحيـله ، كانت تتخبط فى جنبات الدار كالضائعة ، وتدخل إلى غرفتـه وحدها ، لتمكث الساعات الطوال ، وكان صوتها يأتينا من الداخل ، فنقول : إنها تحادثه .

وتقضى أيامها كأنه معها ، كل مافى الأمر أنه استحال إلى طيف لايراه غيرها ، توجه إليه حديثاً لاينقطع ، وحين يأتى أحدنا فعلاً لا يرضيها تتكلم إلي الكائن الطيفى الجالس إلى جوارها : شايف ياحاج . . يرضيك ؟

أوتقول لاتفعل كذا ، لأن أباك لايوافق على هذا ، فنستجيب إرضاء لها ، وكنا لانجرؤ على اقتحام عوالمها ، فهكذا هى حتى مع أبيها وأمها اللذين رحلا منذ زمن بعيد جداً ، لم ينقطعا عنها ، ولم يرتفعا بأبدانهما المجسدة عن حياتها ، كل ليلة تقرأ لهما الفاتحة قبل النوم ، بعد ذلك اضافت فاتحة جديدة للوالد الذى تغلّب على أحلامها ، فصار هو الشخص الوحيد للأحلام الكثيرة المتنوعة، وتوارى- إلى بعيد - الأسلاف الأوائل ، شحبت أطيافهم قليلاً ، واختلطوا بأحداث الراحل العزيز ، فهو القادم الجديد إلى عوالم الموتى، وصاروا هم جزءاً من حياته الجديدة، قال لهم ، وقالوا له .

وكنا ندرك أن حياتنا لاتعنيها إلافيما ندر ، وربما ترانا امتداداً لأطيافها ، حرصت على الإستمرار فى طقوسه اليومية ، ساعة الصحو ، وموعد الوجبات ، وأوان النوم والصلاة ولاتنسى أن تضئ له غرفته كل مساء وتترك المذياع ليتلو القرآن إلى ماشاء الله .

أما ملابسه فلم تفرط فيها ، ولم توافق على أن يقوم أخى بارتدائها ، كما لم توافق على اعطائها لأحد من المحتاجين ، تختفى منا فجأة ، فنبحث عنها ، ثم نفتح عليها باب غرفته فنجدها أمام الدولاب ، تطوى ملابسه للمرة الألف ، صف لملابسه الداخلية البيضاء المزهرة ، وصف لملابسه الصوفية الثمينة ، وآخر لجلابيب الصيف الخفيفة .

وحين دخل الموسم ، وجاءنا محصول الأرض ، فرغ الرجل القمح فى الحوش الخلفى ، ووقفت هى متنمرة ، تنظر إلينا بعداء لانعهده فيها ، ووجهت إلينا الخطاب : اظن كل واحد سيقول نصيبى !

وقال لها أخي : هذا شرع الله ياخالة .

- أتتمسح الآن بشرع الله ياكافر . .

ثم وجهت خطابها للرجال : افرغوا الحب كله في الصوامع . ورفعت سبابتها أمام وجهها بوضع حاسم .

- من يريد شيئاً فليأت إليّ ويطلبه وأنا لن أتأخر .

وخضعنا لمشيئتها ، هل كان من الممكن أن نفعل غير ذلك ؟

تذمر أخي ، وخرج من الدار غاضباً ، فهو يعيش حياة مستقلة ، وله زوجة وأولاد ، وله كل الحق في المطالبة بنصيبه ، وكان يود لو أنه يسيطر على الأمر جميعه ، ولكنها لم تسمح له .

بعد ذلك لم يستطع الصمود طويلاً ، فسرعان ما تصادما ، فقد عاد - أكثر من مرة - إلى المطالبة بحقه ، وحاول إقناعها بحاجته ، والحق أنها لم تبخل عليه ، ولكنه أراد أن يستقل بماقسم الله له ، وكل مرة أزور فيها البلد ، أجدني لا عمل لي غير سماع الشكايا من الجانبين هي تقول : الجاحد . . لا يسأل عني ، يلبد هناك في مؤخرة زوجه ، يمر الموسم فلايدخل عليّ بكيس فاكهة ولاحتى كيلو لحمة ، إنه لايفكر إلا في الاستيلاء على كل شئ .

وهو يقول : أمك تميل إلى السيطرة ، إنها تحرمني حقي فيما ترك أبي . . وأنا الكبير ، لقد صرت مسخرة بين الناس ، ولا أعرف كيف أرضيها ، إذا دخلت عليها بما يقدرني عليه ربي تقول ساخطة « ياما جاب الغراب . . » وإذا دخلت عليها بيد فارغة تزمجر في وجهي « داخل ايد ورا وايد قدام » وحين اطالبها بشئ تردني بعنف .

واصلح بينهما إلى حين ، ويطوى كل واحد مافي قلبه ، ثم عرضت عليها أن تأتي معي ، وكان في ظني أن هذه الزيارة ستخرجها مما هي فيه ،

وتدفعهـا إلى اليقين برحيل الأب ، رفضت فى البـداية بشدة ، كيف اترك دارى نهباً للنخطافين ، واشارت بيدها إلى ما يفيد بأنها تعنى أخى ، واقول لها غلّقى كل أبوابك ، وأنا اؤكد لك إنها ستكون فى أمان .

ووافقت أخيراً . .

قضت المدة تتـرصد كل حركـة وكل سكنة من سلوكى تجاههـا ، لأنها صارت حساسـة جداً تجاه كل فعل يصدر عنا ، وبالفعل فـإن ارضائها كان مسـتحيلاً ، إذا اضطرنى مـوعد مع الزملاء للسهـر إلى ساعة متـأخرة من الليل اعود إليها فأجدها ساخطة جداً ، وتقول متبرمة : من ترك داره اتقل مقداره . . جئت بى إلى هنا لتتركنى بين الأربعة جدران ؟

وإذا عرضت عليها بأن أصـحبها فى زيارة لحديقة الحيـوان مثلا تقول : كان زمان .

أو اعرض عليها مشاهدة الفيلم فى السينما تضحك منى قائلة : سيما . بلا هم .

فاعرض عليها أخيراً زيارة السـيدة زينب أو الحسين فتقول : بعدين . . قرأت لهما الفاتحة من هنا .

ثم زارنى يوماً صديق ، كنت لا اسـتطيع أن اوافيها بالمعلومـات الكافية عنه ، حين لاحقـتنى بالسؤال عن شـخصه ، كنت اجـيب عن كل سؤال بإجـابة ملفقـة حتى لاتكشف سـره ، لاينبـغى أن اقول لهـا إنه لم يكمل تعليمـه ، لأنه مشـغول بالعمل السـياسى السـرى ، وإنه من المفروض ألا نكشف عن اسمه الحقيقي ، فـهو يعيش فى مكان خفى ، ويتردد علىّ من حين لآخر ، يترك عندى بعض الأوراق أو ليحصل على بعضها .

ولما سألت عن عمله ، قلت لها : مهندس .

– مهندس مبان .

- مهندس كهرباء .

- والنبي شكله لايعطى أكثر من عامل فى البلدية .

وحدث أن التيار الكهربائى انقطع عن الشقة بينما أنا وهو جالسين فى حجرة الجلوس ، فخرجت إليها لاطالبها بأن تشعل لنا لمبة الجار ، فقالت : ولم لمبة الجار . . إن النور لم ينقطع إلا فى شقتنا قل لصاحبك مهندس الكهربا يصلحه .

وطلبت منه ذلك ، واتفقت معه علي أن تكون هذه مجرد ترضية لها ، والمسكين حاول الإعتذار ، فقد اسرَّ إليّ : أنا لا افهم فى الكهرباء . قلت له : إن الأمر لايحتاج أكثر من تركيب سلك شعرة فى « الكوفريه » . واسنديده على كتفى ، ووقف على الكرسى يبحث عن «الفيشة » وهى وقفت خلفنا ترفع لمبة الجار ، ففاجأها رأس صديقى الحليق ، كان قد قص شعره بلاطة ، كتمت ضحكتها فى صدرها ، وأنا همست لها : عيب كدا

وصديقنا كان يتابع الهمس بينما أصابعه ترتعش وهى ممسكة « بالفيشة » التى احتار ماذا يفعل بها ؟ ونز العرق من وجهه ، ولمع رأسه فى النور القليل ، فلم تتمالك أمى من إطلاق ضحكتها ، ونظر إليها صديقى ظناً منه أنها كشفت قلة حيلته : فقال لها : أصلى مهندس الكترونى .

فضجت ضحكتها في الردهة ، ولم تقدر على الإمساك باللمبة فتركتها على المنضدة ، وأغلقت على نفسها الغرفة ، وتمكنا - بعد جهد - من إصلاح النور ، وودعنى الصديق ، لأعود إليها مقتحماً الغرفة بلارحمة ، وقلت لها صارخاً: هل جئت بك إلى هنا لتتهكمي على أصدقائى . فصدمت ، ولم تحر جواباً ، وتركتها وحدها فى ظلام الغرفة .

حين جاء موعد العشاء اعددت المائدة وحدى، وناديت عليها فلم ترد ، طرقت عليها الباب ، فلم اسمع لها جواباً ، حاولت فتح الباب لم استطع لأنها غلقت الترباس الداخلى ، وتركتها لأننى لا اقدر أن افعل أكثر من

هذا ، فـقد عـودتنى على أن تغضـب لبعض الوقت ، ثم تعـود هى إلى مصالحتى ، حتى لوكنت السبب .

فى الصـباح فـتحت باب غـرفتى بـعد أن ايقظنى رنين المنبـه ، وحين قطعت الردهة لدخول الحمـام وجدتها أمام باب الشقة المفـتوح جالسة على درج البيت مـحلولة الشعر ، وكان وجـهها كله منتـفخاً ، وبياض الحـدقة انقلب جميـعه إلى اللون الأحمر ، وهى تهرش بأصابع اليـدين في الشعر الرمادى الداكن ، قلت لها خـجلاً : صباح الخيـر . . فنظرت إلى الجهة الأخرى ، ولم اسمع رد التحية ، فاضطربت مشاعرى ، واشفقت عليها ، وددت لو أنى اذهب إليـها واركع بين يديهـا طلباً للغـفران ، ولكن كـيف الطريق إلى ذلك ؟ لم اعتد هذا أبداً .

أكون فياضاً بأحاسيس المحـبة لها ، ولااقدر على إظهارها ، وهى دوماً الضعـيفة تجـاهى ، ترمى بنفسـها في أحضـانى ، وتموج بداخلى مشـاعر متناقضة من الحنين والرفض ، من الجمود والإنسيال العاطفى الخرع .

الغريب إننى - في هذه المرة - لمحت في تعابـير وجهها شيئـاً مغايراً ، لن تلين هذه المرة ، ولن تتـقدم هى الخطوة الأولى التى عـودتنى عليـها . إنها أهملتنى تماماً .

إنقطعت فى يوم وليلة كل عواطفها تجاهى ، إستشعرت ذلك ، وخفت منه للغاية ، ولم أجـد وسيلة للخروج من مـوقفى الصعب ، غـير التلهى بإرتداء ملابسى ، ولم أفكر فى إعداد لقمـة الإفطار ، كما أننى لم أجدها وقد اعدت ذلك من تلقاء نفسها ، كما عودتنى منذ قدومها .

وخرجت مـن الغرفة مـرتدياً ملابس العـمل فوجـدتها أمـامى تمسكنى بقبضة خالية من الحنان ، وفى اللحظة التى اردت الإعتذار فاجأتنى .

- عد بى إلى دارى . . لولا أنه جـاءنى بالأمس وقال أتغـضبى منه إنه حـبيـبك الذى تركتى بلدك ودارك مـن أجله ، طلب منى أن أسامـحك ،

ويحزننى أننى لأول مرة أخالف له أمرا . . لن أسامحك .

وعدت بها إلى دارها لـتعيش وحيدة ، لأنهـا منعت أخى من الدخول إليهـا ، ولكنها لم تمانع في أن أزورها ، كـما لم تمانع فى تبـادل الحديث معى فى حياء ، أفزعني ، وأدهشتنى قدرتها على اصطناعه ، فى كل زيارة إليها تـسقط الحاجز قليـلا بيننا ، تعمل كل مالا تؤاخذ عليـه كأم ، ولكن هذا الشئ الغامض الذي كان يربطنا والذى لايمكن التـعبيرعنه بكلام ، هذه الصلة من المحبة والأمـومة ، سقطت تماماً ، وإرتضت العيش فى غـلالتها الشفافة جداً ، والقوية جدا ، التى يستحيل مع كل جهد مبذول إقتحامها .

طويت سرى فى نفسى ، فهو كـالإثم الحرام الذى لايبوح به المرء لأحد قط . أخشى ما أخشاه أن تموت قبل أن تغفر لى .

ياويلى لوحدث ما تتوقعه نفسى .

لقد عـافرت مع المرض ، وأنا مـتأكد أنهم سـألوها فى أن يرسلوا إلىَّ لأكون إلى جـوارها ، ويقينى أنها رفـضت تماماً ، وقالت : تحـرموا علىَّ لوأخبرتموه بمـرضى . لوكان يشعر بأمه حـقاً لجاء من تلقاء نفـسه ، ولكنه جاحد ، وقلبه ميت .

* * *

فزعت على صوت القطار القادم من الجنوب ، فايقظت فؤاد الذى تمدد على الكرسى الخشب الطويل ، وطويت الجريدة التى لم أطالع فيها سطراً .

تخيرنا إحدى العربات لندخل من بابها ، كان عدد الركاب القليل يتوزع على الكراسى ، ينكمشـون فى ملابس شتـوية ثقيلة ، ومنهم من راح فى نوم عميق ، لايوقظه وقوف القطار ، ومنهـم من جلس متيقظا ينصت إلى حوار الآخر الذى ينطلق الكلام من فمه مع دفـعات البخار ، والتحقنا بهم ،

ليتحـرك بنا القطار الذى سيصل البلد بعد ساعـتين ، ليكون هو نفسه قطار السابعة .

* * *

صفارته لم تزل تـدوى فى أذنى منذ ذلك الشتاء البعـيد . . كان يقف فى المحطة ، والمطريهطل ، وتتساقط حبـات منه على عتبة الباب ، وكنت أنا بالداخل ، بعد أن إنتهيت من تناول إفطارى ، اقف بين يدى أمي تضبط على بدنى الصغـير المعطف الأسـود الخشن ، ابتاعـته لى من الرجل الذى يعلق المعـاطف على سور السـوق الحديد ، وطوت لى الطاقـية على هيـئة كيس ، وأدخلتـها فى رأسى حـتى غطت أذنى ، وطبقت أصـابعى الباردة الأطراف على « جزء عم » وقـالت لى : لاتجعل أحـداً من الأولاد يخطفه منك . . واحذر أن يسقط فى الطين .

واستدارت إلى أخى فؤاد لتقول له : توكلوا على الله .

وظلت لمدة تلوح لـنا بيـدها وهى واقـفـة على البـاب بينمـا أنا وأخى نخوض فى الوحل ، حتى خرجنا إلى الطريق المسفلت .

رأيت زحام التلاميذ والمسافـرين وهم يهرعون إلى المحطة ليلحقوا بقطار السابعـة ، وقلت فى نفسى : إنتهت أيام اللعب ، ولم يعـدلى نصيب فى التسكع على المحطة للشعبطة فى هذا القطار أو فى غيره من القطارات .

ومررنا على مقـاه كثيرة ، وشـممت رائحة الريحان الذى تمتـد أغصانه خارج أسوار هندسة الرى ، وسمعت صفير قطار الدلتا يأتينا واهنا من وراء السور العـالى للسكة الحديد الذى يـطل من أعلاه الدور الثانى لـبيت ناظر المحطة ، المحاط بأشجـار الكافور السامقة ، يبدأ قـيامه من بلدتنا عند باب حديقة الخواجة ديمترى ، ثم ترتفع قـضبانه فوق تلال من الرمل الذى يبرز وسط الأرض السوداء ، فـتسـير به هذه التلال حـتى النهر ، وهناك يعـبر كوبرى صغير له فلنكات خشبية سميكة ترى من خلالها الماء .

قال لى أخى فؤاد : غداؤك فى الحقيبة ، ولاطعام إلافى الفسحة . كان الاولاد يتوزعون أسفل سور هندسة الرى ، وعلى عتبات المسجد ، ويتكدسون فى بقع الشمس الشحيحة على باب جمعية تحفيظ القرآن ، تركنى أخى ، وقبعت وحدى فى زاوية ، اتابع رعشة بدنى المحموم ، وارقب السيارات تبدو فجأة أمامى فى المساحة الخالية من الشبورة .

حين سمعت الجرس دخلت فى زحام الأولاد ، وسرت فى جمعهم لننتظم فى صفوف ، ورأيت رجلا كبيراً له كرش يدخل وسط الزحام يهز بين يديه جلدة سميكة ، وعرفت أنه الشيخ الكبير ، وخرج شيوخ آخرون يرتدون الجلابيب الفضفاضة وعلى رؤوسهم طرابيش حمراء ، راحوا يشخطون فى الأولاد ، ويجمعونهم فى أرض الطابور .

فى منتصف النهار خرجت من مكان الدرس برأس دائخ وعين زائغة ، تتابع علينا الشيوخ ، واحد يطلب منا القراءة بصوت جماعى موحد « قل هو الله أحد . . الله الصمد». و «قل أعوذ برب الناس . . ملك الناس . . إله الناس ».

ونلت ضربة على ظهرى لأنى لا أهتز مثل باقى الأولاد ، ورأيت أمى ترفع يده عنى وتصرخ فى وجهه : شلت يدك .

وحين دخل آخر ، وطلب أن نعد من واحد لعشرة فى إيقاع منتظم ، وبصوت عالٍ ، رأيت وجهها الباسم فى النافذة يحضنى على الإستجابة للشيخ .

سرت في الطرقة الممتدة بين الفصول أبحث عن خلوة ، والأولاد ظلوا يخبطون كتفى ، ويدفعوننى من وراء ومن أمام ، وهم زائطون بساعة اللهو ، وأن ظللت أبحث عن خلوتى حتى وجدت مكانًا فارغاً مدقوقاً على أحد جدرانه جرس كبير ، تتدلى من يد له سلسلة طويلة ، جعلت أثب إليها ، وأثب ، ولا تلمسها يدى أبداً ، ونالنى الإجهاد فقعدت على البلاط ،

ورأيت النمل يسعى فى صفوف أسفل الجدار فتتبعته ولم أجد نهاية لصفوفه ، فأعدت الكـرة ، أبحث عن بدايته ولم أجد له بداية ، فاخـترت مكاناً فى المنتصف ، ومددت أصـبعى بحذر ، وبدأت أفرك هذه الحشرات الصـغيرة حتى أخـتلت صفـوفها ، وإضطربت ، وراحت تدور حـول نفسـها ، فى حيرة ، كمحاولة أخيرة لا ستعادة الصف .

ثم انتبهت إلى اليد التى رفعتنى من الكتف ، وقادتنى أمامها ، لتعيدنى مرة أخرى إلى غرفة الدرس .

* * *

الآن أدخل الجزيرة البيضاء .

سبقنى فـؤاد إلى النزول ، والتحمنا بزحـام الهابطين والطالعين ، نفس الزحام ، وإن كان بوجوه مـغايرة ، تلاميذ يسافرون غـير تلاميذ الأمس ، ومعلمون يهبطون غير معلمى الأمس .

الحالة ذاتها بأناس آخرين . .

قلت له : عد أنت إلى بيتك . . . إنك لم تنم منذ البارحة .

- سآتى معك .

- لاداعى .

وإستجاب لى ، قطع الشريطين إلى الجهة الأخرى من المحطة ، ونزلت الدرجات القليـلة لا ستقـبل الميدان الذى فتـحت أبواب محـلاته لتستـقبل شمس الصباح المتوارية خلف السحب البيضاء الخفيفة .

بوابة المحطة المغلقة حجزت عربات الكارو المحـملة بالبضائع والسيارات التى تنقل المسافرين وأولاد وبنات المدراس فى أزيائهم المختلفة ، مرايل من تيل « نادية » سـمنية اللـون ، ومرايل كـحلى لبنات الإعدادى ، وأخـرى

رمادية لبنات الثانوى ، وحمير وجاموس وأبقار متلهفة جميعاً للغدو إلى الحقول لتحظى بوجبة الإفطار ، ودفء الشمس .

دخلت الشارع الجانبى ، فكان عدد التلاميذ أقل ، وكانوا يهمهمون بكلام مبهم ، والبيوت كانت مغلقة الأبواب ، أما النوافذ فقد فتحت لتجدد هواء النوم ، كنت أرى بين باب وآخر امرأة تميل على الأرض لتكنس أمام بيتها ، عندما أقترب منها تنقطع عن عملها لتقف والمكنسة بيدها ، تتأملنى والحيرة تحوم على وجهها ، ولاتدرى ما تقول .

وصلت نهاية الشارع ، وفى اللحظة التى سأنحرف فيها إلى بيتنا ، ظهر فؤاد فجأة . وأمسك بيدى ، لم يقل شيئاً ، ولم أجبه بشئ ، فهناك على جدارنا ركنت المغسلة ، وإلى جوارها النعش الخشبى ذى السيقان الطويلة ، وأمام الباب بالضبط ، وفوق الأرض النظيفة المرشوش على ترابها قطرات خفيفة من الماء ، صفت الكراسى التي جلس عليها رجال ينصتون لصوت المرتل المنطلق من فتحة الباب الموارب ، ومن ثنايا النوافذ المغلقة .

* * *

-٢-

أدخلونى إليك ، فقد رأوا أنه من الـواجب أن ألقى نظرة لأني الوحيد الذى لم يحضر لحظاتك الأخيرة ، وشملتنى الحيرة فأنا لا أدرى ما أفعل ، غريب أن تتـجمد الدمـوع فى عينى ، لم أبك بعـد ، ويبدو أنى لن أبكي أبداً ، هل حقاً فاجأنى رحيلك ؟

لا أجيد ، بل لا أريد إبداء المبالغة فـى مشاعرى ، ربما لعننى الآخرون ، لأنهم إعتادوا التهويل فى إظهار فجيعتهم ، وأنا أزعم ، بل متيقن أن أحداً من الساعين حولى لايحمل حزناً بحجم حزنى الخاص .

قلة الحيلة ، والشلل الـتام ، هما ما اسـتسلم لهمـا فى الأمر الجلل . أنت جـربث هذا معى ، وعـودتنى على الإندفـاع العاطفى نحـوى ، ولا أملك غير التلقى فى جمود .

هل عرفت يوماً أنى أذوب فيك حباً ؟ أشك .

مدت واحدة من الجالسات حولك يدها لترفع الغطاء عن وجهك ،

وقالت : حاذر الدموع حتى لا تسقط على وجهها .

دموع الأحياء قطرات من اللهـيب على وجوه الموتى . . هكذا قالوا . . ولكن لادموع ، مبرر مـعقول ، سيقولون حافظ على دمـعه حتى لايصيب وجه الأم ، ورأيت ملامح باهتة لبسـمة ساخرة ، كأنك أنت بالذات أدرى الحاضرين بدخـيله نفسى ، كان رأسك دون غطاء ، فانسـاب على الجهتين شعرك الرمادى ، لتتضح الفرقـة الوسطانية ، هذا الخط الذى كان يبدأ معه مسيرة المشط ، كنت إذا خرجت من الحمام مـبلولة الشعر تجلسين القرفصاء فى ركن من الصالة ، وتسحبين المشط الخـشب من منتصف الرأس ، فينثر الماء .

لم تزل فى أنفى رائحـة إختـمـار فروة الرأس بماء الحـموم ، ورائحـة

الصابون الأبيض مخلوطة بروائح الثوب المغسول ، هذه هى رائحة طهارتك .

ولكن حين ملت لاقبل جبهتك لم تطرق أنفى غير رائحة الأدوية لم ارهب الموت الذى تغلب عليك فى الساعات الأخيرة من نهار الأمس . لم أجزع له كما كان يرعبنى حين كنت تصطنعينه فى صغرى ، في بعض ساعات لهوك معى ، تفاجئننى بهذه اللعبة . . أنظر إننى سأموت الآن . . وتسقطين رأسك على الوسادة ، وتغمضين العينين ، وتتجمد أطرافك .

وبرغم رعبى الشديد فإننى لا أبدى شيئاً من الخوف ، اكتفى بأن أرفع جفنيك وأردد بهدوء . . أمي . . قومى . ثم أترك الغرفة ، وأسمعك تقولين متحسرة : قلبك ميت .

ظلمتنى بهذا الحكم أكثر من مرة ، لأنك لم تدخلى معى غطائى الليلى ، ولم تشاهدى يوماً عزلتى التى أعيش فيها موتك ، وابكى حتي ينتفض بدنى ، لأنى – حقيقة – أخشى هذا اليوم جداً .

وها قد جاء ، وأنا أقف أمام جثمانك ، فلا يسعفنى الدمع ،. وأكتفي بأن أجلس على الكرسى . أتأمل وجوه العجائز المعددات ، هن صو يحباتك . هذه المرأة أذكرها ، كم من مرة صحبتنى إلى بيتها ، كنت تعدين الزيارة ، وتقضين الأسبوع في الخبيز وصنع الفطائر. وصوانى الأرز ، وتجمعين اللبن فى الإبريق ، والأرز فى القفة ، ثم تحضرين السيارة المخصوص ، من الباب للباب ، فتقوم بنا من أمام دارنا إلى بيت صديقتك فى المدينة .

هناك حيث شارعها المغطى بأحجار سوداء ، ونصعد سلماً ضيقاً ومظلماً ، لنجدها علي باب الشقة بملابس بيتية خفيفة تظهر لحمها المتهدل ، الأذرع والأكتاف والصدر الواسع المكشوف .

والأحضان والقبلات والحديث حول صينية القهوة ، رفيقة صباك هى ، كم حكيت بإعجاب عن قناعتي وإلتـزامى فى بيوت المضيفين ، فلا تكالب على طعام ، «وإنما عـفة نفس يحسد عليـها » وسمعـتك تقصين على أبى كيف أنني نمت بينما البيضة التى أعطتني إياها صديقتك فى يدى .

وها أنت تتقدمين وأنا أسير خلفك رافعاً حـقيبة المدرسة الثقيلة ، كنت فى ثوبك « الشعـاري » الأسود والبـرقع بالقصبـة الذهبيـة على وجهك ، وكنت قـد قررت حـسم الموضـوع ، لانى شكوت أكـثر من مـرة من ابنة الناظرة التى تتعقبنى ، ولا تكف عن إيذائي . بسـبب تفوقى عليها ، فهى تستخدم سلطاتها كابنة ناظرة فى ضربى أوركلي من الخلف أو صفعى على القفا ، وبالأمس ألقت صندوق القمامة علي رأسى .

ودخلت معى المدرسـة ، وإقتحـمت غرفـة الناظرة مباشـرة ، وتحدثت معها بشـجاعة ، هذا ولدى وهو أول فصله ، كيف تسمـحوا بإهانته ، ما يمر يوم الإ ويشكـو من إبنتك مـر الشكوى ، جـئت لاطـلب ملفـه لأنى سأنـقله إلى مدرسـة أخرى ، تحـتـرم قدراته ، وأعـجب المدرسون بـقوة منطقك ، ولم يرد أحـد طلبك ، ولم تخـرجى إلا والملف فى يدك ، وأنا فى اليد الأخرى .

أنا معك مرة أخرى ، يدى فى يدك ، نتـجه إلى السوق دخلنا بين كتل النسـوة المزدحمات علـى فرش البائعـين الذين يقتـعدون جانبـى الشارع ، وتدخل العـربة الكارو المحـملة بالبـطـاطس فتـفـرق بين الكــتل لتـشق لنفـسهـا طريقا ، ونمت أنا على ظـهرك من الخلف ، ونسـيت أنى تركت ساقى اليمنى ممددة على آخرها ، وداستها العجلة الحديدية ، وحين سمعت صوت تكسـر العظام ، أدركت ما حـدث ، ضربتى صـدرك بعنف : ضنا أمك .

سقط فى الغيبوبة ، وتركتنى بين أجساد النسوة الماثلات علىّ ، لتلحقى

بالرجل ، وتجمعي قبة جلبابه بين قبضتك ، والقبضه الأخرى امسكت بحذائك ، على رأسه ، حتى بكى الرجل ، وبكيت معه ، فقد صعب عليك إستسلامه ، وعدم مواجهتك ، أو إدعاءه البراءة .

لانهاية للذاكرة . .

فماذا اذكر ؟ وماذا ادع ؟ أيام كثيرة سوف تأتى ، وسأكون بدونك ، ولن يتبقى لدى غيرما عشته معك .

ولم اتمالك نفسى فى النهاية ، ووجدتنى أميل عليك دون إرادة مني لأهتف فى أذنك . . سامحينى .

ولدهشتى وجدت وجهك يرتاح ، وكدت أرى المقلتين تتحركان أسفل الجفنين المغلقين ، ولكنهم شدوني من الخلف عنوة ، وكنت لم أزل ممسكاً بيدك الباردة التى وضعت فى وريدها الميت جماع القلب ، وحاجته للغفران .

* * *

- ٣ -

فى اليوم التالى لدفنها لم أحتمـل وحدتى ، إستيقظت من النوم بعد أن أخذت كفـايتى منه ، كنت بحاجة شديدة إليه ، لأنى قـضيت يوماً طويلاً مابين السير فى الجنازة ، والوقوف فى المضيفة ، فاستقبالنا للمعزين لم ينته حتي ساعة متأخرة من الليل .

عـدت وأخى إلى البـيت وكانت زوجـه أعـادت كل شئ فى مكانه ، نصبت الـسرير الذى كان قـد رفع لإدخال المغـسلة ، وأعادت غـرفتى إلى وضعها السابق ، كأن شيئـاً لم يحدث ، البيت كما هو بفرشه وأثاثه ، لم يتبدل شئ ، غيـر أنه إزداد إتساعاً ووحشة بعد أن فـرغ من ساكنيه ، هل فرغ حقاً ؟

إننى أحسهم من حولى ، صار وجودهم من نوع آخر ، وجود طيفى ، غامض وملتبس ، غير أنه أكثر كثافة وحيوية .

عزم علىَّ أخى بقضاء الليلة فى بيته ، فأبيت ، واجبته مستنكراً .

- هل نغلق الدار إلى الأبد ؟

إننى سأتعامل فى وجودي بها كأنهم أحياء بيننا .

قال : إنى أخاف عليك من وحشة الليل .

- لا عليك .

وطرحنى الإجهـاد أرضا ، لم يعطنى الفرصـة فى تأمل الحال الذى أنا عليه ، نمت بإستغـراق حتى أفقت قرب الفجر على الأصـوات الهامسة في حجرة الأب ، انصت لفترة ، وتعرفت على صوتهما ، فأعادتنى الأصوات إلى الفة الزمن الغابر ، أيـام كنت أنام طفلاً على ونسهما ، وهمـا يلتفان حول الموقد وبراد الشاى ، وغلبنى النوم مرةً أخرى ، حتى افقت على نور الضحى .

يا إلهى . . ماذا افعل بوحدتي ؟

وانقذتنى طرقات الباب ، فوجدت أخي فؤاد أمامى .

– رحت فى سابع نومه والبلد مقلوبة .

خرجنا معاً إلى ميدان المحطة ، فرأينا الزينات والأعلام ، واللافتات معلقة في كل مكان ، علم كبير إنتصب عموده الخشبي فوق قاعدة التمثال الفارغة ، ولافتات ترفع أسماء أعيان البلد ، وأعضاء الحزب الوطني ، واعضاء مجلس الشعب والمجلس المحلي مفرودة بطولها فوق العمارة التي اقيمت مكان عيادة الحلاق القديمة وفوق العمارة المصفوفة أدوارها كعلبة الكبريت ، وعلى شرفة الطبيب ، وعلى واجهة مقهى ابن تاجر النحاس ، واكتظت النوافذ والشرفات بالنسوة والبنات والأولاد الصغار ، وتكدست الأسطح القريبة والمواجهة للمحطة بنسوة جئن من الأحياء البعيدة .

وعلقت مكبرات الصوت فوق أعمدة النور وأعلى « البلوك » وزينت البوابة الحديدية بأوراق ملونة ، كذلك و اجهة « البلوك » المقابلة لشريط القطار ، والتفت لافتات أخري فوق مظلات المحطة ، وعلقت أعلام صغيرة على مباني المحطة وعلى جدران الزاوية المشيدة فوق الرصيف ، واستخدم مكبر الصوت الخاص بزاوية المحطة في إذاعة الأغاني الوطنية التى يقطعها صوت غليظ يبدأ بنفخة شديدة ثم يعدد التهاني بقدوم بطل الحرب والسلام ، وكرر آية «إن جنحوا للسلم » مائة مرة على ظن أنها الأليق بالمكان الذى يتحدث منه إلى الناس ، وفي كل الأحوال فإن الصوت القادم من جهة الزاوية - برغم غلظته - كان أكثر رزانه ووقاراً من الأصوات التى تصخب بها مكبرات الصوت الأخرى ، فقد إستولى جماعة من صبية موقف السيارات على « مايك » مكبر الصوت المرفوع أمام المقهى ، وراحوا يرقصون على إيقاعات طبلة غشيمة مرتخية الجلد فاخرجت صوتاً مخنثا هو مزيج من حنجرة الرجل الجهوري وليونة المرأة المبتذلة ، كما أن أحدهم كان يدق على رق له شخاليل يختلط رنينها بصوت الصاجات ، وكانوا يرددون كل ما يخطر على بالهم من أغان ، بدءاً من « ودع هواك » مرورا بـ « حبه فوق . . حبه تحت . . » وانتهاء بـ « بدنانتجوزع العيد » وبين كل أغنية

وأخـرى يتقـدم ولد من العـاملين على موقف السـيـارات يردد خليطا من الشعـارات « بالروح بالدم نفـديك ياسادات . . » « عاش بطـل الحرية » « عاش بطل الاشتراكية ، والرجعية » .

« المعلم حزيقة يحى بطل السلام » « الأسطى خنيـفة يحيى بطل السلام » وحين لمح المأمور مقبلاً نحـوه وهو يمتطى حصانه البنى الغامق هتف له وهو لايدرى أنه جاء لإسكاته « عاش سعادة المأمور بطل السلام . . » .

- بطّل ياابن القحبة .

فألقى « المايك » على الأرض ، وجروا جميعاً فى إتجاهات مختلفة دون أن يكفـــوا عن الطبل والدق علـى الرق ، بل إن الولد الذى كـــان ممسكا بالصاجات هزله أردافـه من الخلف وهو يتراقص ، فغمز المأمـور قدمه فى بطن الحصان لينقض عليه ، فسقط الولد على ظهره ، وارتفعت ساقاه إلى أعلى وهو يرفص صارخاً : أنا فى عرضك يابيه .

عاد المأمور مبتسماً بعـد أن وقعت عيناه على عورة الولد وقال لعسّاكره الذين شاركوه ابتسامه : ابن القحبة ماشى من غير لباس .

وقـفنا نتأمل الرصـيفين النظيـفين ، كـانا قد اخليـا من أهالى البلد ، وأحيطا بكردون من عساكر المركـز المدكوكة أبدانهم فى الزى الميرى الخشن ، فرغـا الرصيفـان ليقف عليـهما المسـئولون فقط ، رئيس مـجلس المدينة ، ورجال الحزب ، وأعضاء المجلس المحلى ، وفرقة المزمار البلدى بجلابيبهم السابغـة التى سقطت أكمامـها إلى الزندين وهـم يسددون المزامـير فى عين الشمس التى غشت عيونهم ، ويرفعون أقدامهم إلى أعلى علي وقع الطبل الكبير . لألحانهم عراقة وفرحة تستحلبها الأذن وتطرب لها ، وتعيد للنفس الحزينة ساعات البهجة المفتقدة ، فهل لك نصيب من هذه البهجة الطفلية ؟

أنت الذى ودعت أمك بالأمس . هل يهـتز القلب للحن السـاذج بينما

أصدقاء لك يقضون أيامهم - منذ عشرين يوماً - فى زنازين المعتقل ؟

هاهو ذاهب إلى المنصورة بغرض إستعراض القوة ، وليثبت للعالم أنه يعيش فى أمان بين شعبه برغم ضربه لكل وجوه المعارضة .

عرفنا - بعد ذلك - أن صهره عثمان نصحه بإلغاء هذه الزيارة ورفض النصيحة ، وقال : كله بأمر الله . وأضاف : أنا لاأخاف على نفسى وإنما على مصير من حولى !

وعرفنا أن أجهزة الأمن قد كشفت محاولة لإغتياله ، كانت الخطة أن يندس المنفذون وسط الجماهير المحتشدة ، ثم يتحين هؤلاء الفرصة المناسبة لسحب أسلحتهم وإطلاق الرصاص عليه عند نزوله فى محطة المنصورة .

قبضت الداخلية على العناصر التى أعدت للمحاولة ، وتوصلت إلي الشقة التى كانت تتم فيها اللقاءات ، وعثرت على أسلحة وذخائر ولكنها لم تفلح فى القبض على قائد هذه المجموعة الذى فر هارباً . مما سبب ذعراً لدى رئيس الدولة ، جعله أكثر إستنفاراً وتحديا ، وسمعه الناس وهو يخطب فى المنصورة ، ودهشوا لجملته « أنا عارفه وهو سامعنى دلوقتى » وتساءلوا : من يعنى ؟

فى زمن آخر كنا نرى نفس الخروج ، وإن كان له جلاله وعظمته ، وياله من جلال وعظمة . البيوت تفرغ من ساكنيها ، لا أحد يبقى بين الجدران ، الجميع بمن فيهم العجائز اللائى يرفعن على الحمير ، والأطفال الرضع على صدور الأمهات ، والصبية الأكبر سناً يحملون على الأكتاف ، الكل يزحف نحو المحطة ، وعلى إمتداد الشريط الحديدى يقفون متلهفين ومرددين مع حليم الأغانى الوطنية التى تشعل وجدانهم « ياجمال ياحبيب الملايين » و « كنا حنبنى وادى احنا بنينا السد العالى » ، ويهتفون مع صوت عبد الوهاب الجليل « دقت ساعة العمل الثورى . . ».

ويرقـصون عـلى ايقاعـات أم كلثـوم حين تهلل « طوف وشـوف » ثم يصخـبون هم بجملتـهم المرتجلة « يا محنى ديل العـصفورة وجـمال رايح المنصـورة » كـانوا لايكتفـون بالتـرقب لطريق القطار ، بل يـزحفـون إلى الأرصفة ، ليتمكنوا من المشاهدة القريبة .

رفعـتنى أمى على كتفهـا ، ووقفت لمدة طويلة على حافـة الرصيف ، تميل برأسها جهة الجنوب مع من يميل ، ويحين جاء « الديزل » الفردانى ، قالوا : الدليل الذى يأتى فى المقدمة .

وعند ذاك اندفع العـسكر فى الحشـد ، وطالبوهم بالنزول على جـانبى المحطة ، فهاج الجـمهور ، وتشبثـوا بمواقعهم ، بيد إن قـوة الدفع سحبت بدن أمى إلى أسـفل ، فكانت مـشاهدتى منـقوصـة ، فلم أر غـير نعليـه اللامعين ، وسراويل بدلته السوداء التى قبضت أمى على طرفها لتقول بعلو الصوت : اشوفـه زيك . . فمال بجسده الشـاهق نحوى ، واستطاع رغم السـير البطيئ للقطار أن يـلمس شعـرى ، ورفعت حـينذاك رأسى لأطالع وجهـه المضئ بالفودين الأشـيبين فلم أقدر على المـواجهة ، فـصرخت من الهول ، وقطع به القطار مسافة لاتجعلنى اراه مرة أخرى ، فنقلتنى أمى إلى صدرها لتـضمنى بقوة ، وهى تمسح دمـوعها ، ثم سـألتنى : هل رأيته ؟ فجددت بكائى . .

لـم يكن باستطاعة خيـالى الطفل أن يتوقع حدوث هذا فى الواقع ، أن أرى ساكن السماوات الذى تشكله أحلامى يسير بيننا على الأرض . كانت معجزة فجرت حيرتها دموعي .

قلت لفؤاد : إننى لا أريد أن أراه .

- ومن سمعك .

كانت تتـصارع فى داخلى مـشاعر مـتناقضة ، منهـا مايخـصنى ، وما

يخص الناس من حولى ، كيف اجرؤ على الوقوف بين رجاله ودهمائه لمطالعة وجهه البغيض ؟ إن مشاهدته فى حد ذاتها خيانة للنفس .. ثم إن عين البلد لاترحم ، ولا تتقبل لحزينين مثلنا الوقوف وسط طبل وزمر ، فهو فى النهاية عرس ، لايليق بمن ودع أمه بالأمس .

عبرنا البوابة لنتجه إلى بيت فؤاد فى الحى المقابل ..

سنسمع - فيما بعد - كيف أن الرئيس لمح الحاج أبوزيد(١) واقفاً بين المسئولين ، فنادى عليه .

رفع الحاج ذيل جلبابه ليتمكن من الإمساك بالعمود المذهب لعربة الرئاسة ، فأحس بأنه يمتطى البراق الذى يضرب بأجنحتة أركان الكون الأربعة ، إنه لايصدق أن يسرى به فى عز النهار ، الرئيس بذات نفسه ينادى عليه باسمه .

وهاهو يقف بين كبار رجال الدولة . فهل رأته البلد بعينها ؟ على الأقل ، رآه رفاقه من مسئولى المركز ، وسينقلون فى الحال الواقعة .

إنه الآن يضمن ترشيحه للمجلس إلى الأبد .

وقف على جنب عاقداً يديه أسفل بطنه ، ولأنه لايدرى مايفعل بهما كان لايكف عن ضبط طاقيته الصوف على رأسه ، ولأنه لايدرى ما يفعل به الرئيس بعد مغادرته البلد ، وقبل أن يصل القطار نهاية الرصيف ، أمسك بيد الرئيس ، واشار إلى العمارة (٢) العالية التى تواجه البوابة الثانية

---

(١) أحد رجال ديمترى الذى اضطر أن يتنازل له عن بعض ممتلكاته حين أجبر على ترك البلاد بعد العدوان الثلاثى بشهور .

(٢) ليست من أملاكه إنما تتبع تاجركبير ، وتعتبر من أعلى البنايات فى البلد والدليل على ذلك أنها استخدمت فى رفع صفارة الإنذار اثناء سنوات الحرب ٦٧ و ٧٣.

للمحطة : تفضل فخامتك نخطف لقمة .

وابتسم له الرئيس وهو يطحن بفكه السفلى : شكراً ياحاج

- والله ياإخوانا البيت قريب .

وتبادل كبار رجال الدولة الهمس ، وربت الرئيس على كتفه ودفعه برهافة حاثاً إياه على النزول .

والله هو لايدرى لماذا فعل الرئيس ذلك ؟

ولكنه قال - لشلة الأنس - ربما نقل له رجاله موقفى يوم توقيع المعاهدة ، ففى نفس الليلة طلب الحاج الإجتماع بشباب البلد من المتعلمين ليشرح لهم أهمية أن توقع مصر ، ويعدد لهم الفوائد التى ستعود على أهل البلد ، وقف على المنصة ، فلم يفتح الله عليه إلا بجملة وحيدة ظل يرددها : والله بلدنا راح تاكل بقلاوة بعد كامب ديفيد . . والختمة الشريفة بقلاوة .

* * *

إذا امتد الشارع الذى ندخله الآن على استقامته سيصل بالتأكيد إلى أول الرمل ، على مسـافة لاتزيد عن العـشر كيلومـترات ينتـهى الوادى بأرضه السوداء الطينية التى كـانت تشكل ملكيات الأسرة الحاكمة قـبل الثورة لتبدأ الصحراء بـرمالها وكثبـانها ، أرض قاحلة ، لاحـياة فيها ، تأخـذك حتى تصل إلى سيناء ، لايقطعهـا غير خط المياه المحفـور الذى يصل البحرين ، قناة السويس .

من هاهنا جاءك البدو الرحل ، وقبائل الغجر الذين حطوا رحالهم على هذه البرارى المهـجورة . كان هذا الأمر لايعنـيك فى شئ ، فأنت مكنونة فى أرضك العـالية ، وراء أسوارك الـبيضـاء ، يقف رجالك فى أبـراجهم شاكى السلاح ، يصدون عن أبوابك الـغارات ، ثم جاء من بعدهم - من نفس الطريق - رجال المناسر ، فانتشروا بين البيوت المتناثرة التى ضاقت بها أسوارك ، لينقـبوا الجـدران ، ويسلبوا الماشيـة وصناديق الغلال ويفـرضوا الإتاوات .

وانهار السـور أمام تكاثر أبنائـك ، ورفعت الأبواب ليبـدأ الزحف إلى السـهل ، وبعد انقـضاء الوحـشة بمرور القطارات ، عـبرت الشـريطين ، لتجعل امتدادك على هذه الأرض .

كانت البداية بالمقاهى والغرز لتستقبل المسافرين أو يرتاح عليها - لبعض الوقت - الراحلون ، ثم وكالات تجمع المطايا حتى يعود إليها أصحابها من أغراب بعد قضـاء حوائجهم فى المدن البعيدة ، ثم مـوقف للسيارات حين تشجع أحدهم وابتاع أول سيارة تنقل أهل البلد إلى المديرية ، بعدها جاءت خطوط الأتوبيس فـاقيـمت المحطة غيـر بعيـد عن الموقف وسكة القطار ، وصار الشارع شـارعين ثم ثلاثة ثم أربعة ، واتسمت هذه المنطقة بالتـقسيم الحديث ، شـوارع طولية وأخرى عـرضية لها اتسـاع معقـول يسمح بمرور

سيـارة الأجرة وسيـارة النقل ، هاهنا لاتعدم العين مـشاهدة مـلامح مدينة جديدة ، لاشبه بينها وبين الأخرى القابعة على التل العالى .

وجاءك السوق . .

اقيم له سور من حديـد يحدد مساحته ، له باب كبـير على جانب منه دار للحارس وأحواض لرد عطش البـهيمة وصنابير كبيـرة لتروى غلة البائع والشارى ، وانشئت بداخله مباسط خشبـية تؤجر للتاجر ، وجملون مرتفع ليظلل على الصاغة .

وقسمّ السـوق إلى مواقع حيث يجـتمع تجار الصـنف الواحد فى مكان بعينه ، هنا الـسماكـون ، وإلى جوارهم باعة الخـضار والفاكـهة ، وعلى مقـربة منهم تجار الأقمـشة والملابس الجاهزة ويتناثـر فيما بيـنهم السمكرية وبائعو الفـول والطعمية ، أويصـخب فى زحامهم رجال يرفـعون الدوارق الكبيرة علـى بطونهم ويضربون بأيديهم على صاجات تنبـه الناس للشربات الملون والعصائر .

وجاءك الخلق من كل صوب . .

فضج المكان بحركة البيع والشـراء ، واعتاد أهل القرى المجاورة النزول إلى البلد لابتياع لوازمهم ، كما اعتـاد تجار المدن القريبة رفع بضائعهم على عربات الكارو ليروجوا لها بين المترددين على السوق .

وظهرت بيوت على جانبى السوق . .

انقضى - إذن - زمن وحشتك ، وعزلتك .

الآن يأتى إليك الناس بالقطارات والسيـارات ، يترددون على سوقك ، بعد أن كنت لاترى الغـرباء سوى مرة واحدة فى العام ، عنـد إقامة المولد السنوى لصاحبة المقام ، الوحيدة التى مجدت بين أوليائك .

بعـد قيام الـثورة . بنيت فى مـداخلك المنشآت الجـديدة ، فى المدخل

الجنوبى أسست الوحدة البيطرية والساحة الشعبية وبيت رئيس المدينة وشونة الغلال والمحكمة والمدرسة الثانوية ، وفى المدخل الشمالى منشآت أخرى ، هندسة الرى ، والمعهد الدينى للفتيات وبنك مصر والمساكن الشعبية ومبنى مجلس المدينة ، ونصف طريق الأسفلت ، فقامت فى الوسط أعمدة النور ، وعلى الجانبين أشجار لهـا زهر أحمر وثمار صغيرة تشـبه البطيخ - تفتقت عن أقفـاص الجريد لتزدهى بخـضرتها ، وأقـيم السور من الدبش الأبيض ليـحفظ للقطار طريقـه ، وأمـام السور تعـددت المحلات لكتـبة المحكمـة والمحامين وورش إصلاح السيارات .

كان للأب نصيب من أرضك هذه . .

ادخل الآن الجزء المتبقى منها ، بيت فؤاد .

قبل الثورة بسنوات قليلة دخل مزاد الأرض التى تؤول لحليم باشا ، فى هذه الحقـبة كان الأب قـد افلح فى إقامة الـعلاقات مع التـفتيش الأمـيرى وعرف وسائل التقرب من موظفيه ، فارسل الهدايا الثمينة ، وذبح الذبائح ، وأولم الولائم ، واعتاد أهل الحى عـلى « كاريتة » المفـتش يركنهـا أمـام « الفراندة » وينزل هو وأتباعه ليجتـمعوا على عشـاء من أطايب الطعام ، المشوى والمسلوق والمطـبوخ ، من لحوم الضـأن والدجاج والبط والرومى ، بعدها تمتد جلسة الحشيش حـتى الساعات الأولى من النهار على شدو أم كلثوم فى حفلها الشهـرى ينطلق من مذياع له ضوء يشع على واجهتـه ، ويستمد طاقته من أسلاك متصلة ببطارية مشحونة من « دينامو » الطاحونة .

هكذا هجر الأب الدار القريبة من الطاحونة .

بعد أن وجه عنايتـه زمناً لامتلاك الأرض ، ليعـود إليها فى شيخـوخته فيقضى بين جدرانها العالية أيامه الأخيرة ، ويكون قد ترك هذا البيت لولده ، بعد أن اضطـر إلى بيع مساحـات واسعـة من أحواشه ليـسد بهـا الأزمات الطارئة .

عاد إلى بيت الـطاحونة مرة أخـرى بعد أن ولى زمن الأرض الواسـعة التى كانت تغـدق عليه المحصـول الوفير تفـيض به الصناديق وأسطح الدار وأرض الحوش ، وفى أوقات التحاريق يجـرف الأرض فيخرج منها الطمى يجلبه إلى أحواش الدار ليقيم معجنة مهولة تلوك فـيها الخيل بسيقانها يوماً بكامله ، ثم يأتى العمال فيضربون هذا الطين قوالب ، تصف فى المساحات الفارغة معرضـة للشمس اللاهبة ، ثم يأمر بإقامة القمـينة التى يصف فيها الطوب ، وتضرم نارها الحامـية ليخرج فى النهاية طوباً أحـمر يوزعه الأب مجاناً ، مرة لإقامـة مسجد للحى ، ومرة لإقامة جمعيـة لتحفيظ القرآن ، وأخرى يهبها مجاملة لحضرة معاون المركز الذى يشرف علي تأسيس النادى الرياضي ، ولـم يحفل أبداً بأن ينـشئ لنفسه بيتـا من الحجر ، ظل عاشـقاً لبيـوت الطين ، واكتفى باستـخدام القالب الأحمَـر لمداود الماشية وعتـبات الدور وللجدار الخاص بحنفية المياه .

استمر على هذا المنوال مواسم عـدة ، ثم فاجأته الثورة ، فأممت أرض الباشـا ، ووزعت على الفلاحين الذين كـانوا يعملون لديه ، أمـا هو فلم يطبق عليه قـانون الإصلاح ، حرم من ملكية الأرض التى كـان يزرعها ، وكانت حجة اللجنة أنه يمتلك الطواحين ، ولاتنطبق عليه صفة الفلاح كما حددها رجال الثورة ، سعى إلى كل الجهـات غير أن الأبواب ظلت مغلقة فى وجهه ، واستمر عداؤه للعمـدة وأعضاء اللجنة قائماً فيهم وفى ذريتهم حتى رحيله .

هاهو يسمع حديث الناس عن السيدة إيزابيل اليـهودية التى تبيع أرضها برخص التـراب ، قبل أن يلحقـها قـانون تحديد الملكيـة ، فعاجـل بجمع ماتراكم لديه مـن مال ، ودفع المبلغ المطلوب ليحـوز مسـاحة معـقولة من الأرض .

وتبدل رفضه الشديد للثورة إلى تأيـيـد حاسم « لولاها ماصرت مالكا» و « فدان واحد ملك أبرك من خمسين فـداناً ايجارا » هكذا كان يقنع نفسه ، أو يلخص فى جملته عصارة حكمته للآخرين .

* * *

-٦-

ودعت فؤاد بعد أذان المغرب ، خرجت من بيته مكتظاً بطعامه ، وكان قد تجرأ على الحديث حول مستقبل الأرض والطاحونة والبيت ، وقال إننى لا أملك الوقت الكافى لمتابعة مثل هذه الأمور ، وطالبنى بالذهاب معه صباح الغد إلى الشهر العقارى لاوقع له توكيلا خاصاً ، يمكنه من تصريف هذه الشئون بدلاً من اللجوء إلى استدعائى فى كل صغيرة وكبيرة ، أو نتوكل على الله ونبدأ التقسيم فى الحال .

وتركنى للإختيار . .

قلت له : ربنا يسهل . . إنك فاجأتنى ، والموضوع بحاجة إلى وقت طويل .

فقال : الأعمار بيد الله ، وهذه سنة الحياة . . وخير البر عاجله .

لا يعلم أننى انفر من مثل هذا التفكير العملى ، فهو باتر وقاطع ، لا يدع فرصة للعاطفة ، ولا للتامل فى مصائرنا ، فى زمن الأب لم يكن ليجرؤ على طلب استقلاليته ، صحيح إن الأمور ستنتهى بأن يحوز كل واحد منا نصيبه ، ولكننى بحاجة لوقت طويل حتى أشعر برحيل الأبوين ، كما أننى أخشى أن يتركنى وحيدا حين يستقل بميراثه ، وأنا لا خبرة لى بإدارة ماسيؤول إلىّ .

تركت الأمر معلقاً بيننا على وعد أن يتم ذلك بعد طلعة العيد الكبير .

اضيئت أنوار الشارع الكبير ومصابيح المحلات والمقاهى المنتشرة على رصيفه ، واختلطت أصوات الراديوهات تذيع برامج أول الليل ، ألقيت نظرة باتجاه المحطة فوجدت الزينات قد رفعت عن الأعمدة ، وسقطت الأوراق الملونة عن البنايات وتدلت من سطح « البلوك » إلى الأرض دون أن يهتم أحد برفعها ، قلت : إننى لا استطيع العودة إلى البيت فى هذا الوقت . . لا مانع من جولة خارج البيوت .

مررت على مـقهى الحاج محى ، كان حـضور الفواعلية وعـمال البناء كثيفاً كالعادة ، تزدحم الـكراسى الموزعة على الرصيف بالجلابيب والعمائم ، نفس المقهى الذى كنت أسـعى إليه ، فأجـد أبى بين أصدقائه يلتـفون كل صباح ليدخـنوا كرسى المعسل ، ويطالعوا الجريدة اليومـية ، ويعلقوا على الأحداث بطريقـتهم الخـاصة ، كانت سـحنهم الوقور تضئ بنور العـمائم المزهرة ، وتستدفئ أجسادهم بعبـاءات الجوخ السوداء . اليوم تبدل الحال ، رحل هؤلاء مع زمانهم لـيقتعـد الفواعليـة مقاعدهم بـانتظار المقاول الذى يقبض لهم الأجر ويوزعهم على مواقع العمل .

كم مرة اتخذت مكانك فى صفوف الإستعراض ؟

فى كل مناسبة وطنيـة ينتقى المدرسون التلاميذ الذين يتـصفون بالنظافة وحسن الهندام ، ليـرفعوا أعـلام المدرسة واللافـتات التى تحمل جـملاً من خطب الرئيس . نسـير بخطوات منتظمـة تدق نعالنـا الصغيـرة على أرض الأسفلت على إيقاعات فرقة المدرسة الموسـيقية لتخرج الأمهات وناس البلد إلى النواصى يطالعون وجـوهنا الصارمة وخطوات أقدامنا الثابـتة ، فتنفلت منهم مشاعرهم وتطلق الزغاريد ، فرحة بنا ، لابأعياد الوطن .

مازال بناء جمعية تحفيظ القرآن على حاله ، هذا هو الحجر الكبير ، كنا نجتمع فوقه تاركين أبداننا المبرودة لشعـاع الشمس ، يأتينا صفير قطار الدلتا من وراء الاسوار ، اليـوم فتحوا طريقـاً يعبر إلى الجهـة الأخرى ، بعد أن رفع شريط « سوارس » ، وبسط مكانه طريق مسفلت عريض .

أين راحت رائحة الريحان ؟

لاشئ يطل من أسوار هندسة الرى ، بعد أن اهملت حديقتها الجميلة ، اعـيد بناؤها من جـديد ، أزالوا البناء الذى أنـشئ على الطراز الأجنبى ، سقف من قـرميد أحمـر ينزل هابطاً على الجانبين ، وأعمـدة وأسوار تطل على الحديقة ، ومـدخل مفروش بالحصبـاء الملونة ، يصل إلى مطلع الباب

الكبير المكون من هيكل حديدى عشقــت زخرفاته النباتية بقطع من الزجاج الملون .

كانت الهندسـة هى المكان الوحيـد الذى يضاء بالكهـرباء قبل أن يمدوا الأسلاك بين أعـمدة الشوارع ، كنا نسـمع تكتكات ماكيـنة الكهرباء داخل الغرفة المستقلة ، ونلعب تحت أنوار المصابيح التى تشـبه القبعات البيضاء . توارت رائحة الريحان . .

واهملت الحديقة بعد أن برز البناء الجديد الخالى من الأعمدة والزخارف ، لاشئ غـير مـربعات النوافـذ ، ومسطحـات طويلة فى خطوط متـوازية ، لاتلمس القلب أبداً .

هل كان جدك هو رجل الصنبور أم تراه شبحاً لشخص يشبهه ؟

الذاكرة الآن فى حالة اختبار ، إن لـم يكن جدك فلم اتيت يوماً إلى هذا المكان ؟ ولم دنوت نحـو هذا الرجل الذى أمسك بيدك الـصغيـرة وقال : افتح للنسوة . فضغط على المفتاح ليندفق الماء فى حلوق الجرار . ماء غزير يضيع نصفـه على هدوم البنات اللائى يتحركن فوق الحجـارة المغروسة فى البركة .

مايؤكد أنه جدك قول أمك أن الأرض المجاورة للجمعية كانت ملكاً لنا ، باع جدك نصيبه منها للغريب الذى أقام عليها محطة للبنزين .

ولكنك رأيت يوماً هذه الحظيرة المهجورة .

ظلت زمنا وحيدة لم يـهدمها الغريب ، ابقـاها خارج أسواره . وفى طريق المدرسة كنت تقف وقتاً طويلا لتتأمل هذا البيت الصغير المشيد على سطحها .

كم بهـرك هذا البيت المكون من طابـقين ، وكم حلمت بالدخول إليـه فـتجـول بين ردهاته ، وقصـصت على أمك حكاية البـيت واذهلتك حين قالت : إنه ذلك البيت الذى بنيته بيدى وأنا طفلة .

وقالت : فى عصرية صيفية رائعة تسلقت الجدار أنا وصديقة لى ، عجنا الطين فى إناء من فخار ، وأحضرنا الحجارة المهملة بين عيدان الحطب لنقيم البيت الذى وقعت فى غرامه ، احتفظ بوجوده لأن أحداً لايجرؤ على الصعود إليه ، ولن يسقط حتى تهدم الحظيرة بكاملها .

هذا هو نفس الطريق إلى أرضنا البعيدة ، فى هذا المكان بالتحديد سقطت تحت الجميزة العجوز . كنت عائداً من الغيط ممتطياً الحمارة الحرون ، وضعت قدميك فى خصم الغبيط، ورفعت العصا فوق رأسها لترمح بك ، ولكنها الملعونة اسقطتك على الأرض فيصدم رأسك بجذع الجميزة ، رفعك الناس من تحت إبطك ليذهبوا بك إلى المستشفى القريب[1] .

ستنحرف لتعبر المزلقان الأخير ، لا طاقة لك فى المرور من أمام المشرحة ، فى كتلة الظلام المحيطة بها تعشش عفاريت الموتى ، وتحت أسوارها تلهو أرواح مجنونة تقطع الطريق وتبخ ألسنة النار فى وجوه المارة .

سكون المكان هيأ للراحلين القيام ، من ماء الترعة يصعد الغرقى ، ومن بين القضبان وقطع الزلط تتجمع أشلاء القتلى الذين داستهم العجلات الحديدية .

تعود الآن مهرولاً . لاقدرة لك على النظر إلى الخلف لتتأكد من تلك الوجوه التى تفح بأنفاسها من حولك .

---

(١) أمرت بتأسيسه الملكة فريدة ، على رأس الألفى فدان التى سجلها فاروق باسمها كهدية عرس ، وبدل اسم القرية التى يقع بها التفتيش الملكى ليحمل اسم الزوجة الأولى لملك البلاد

- ٧ -

لم ألحظ شيخوخة هذه الدار من قبل ، رأيت ذلك وكأنما حدث فى يوم وليلة ، لم انتبه لكونى اهبط إليها الآن قدر عـتبتين بعد أن كنت اصعد إلى بابها درجتين ، ولم يلفت نظرى هاتان النافذتان المنخفضتان اللتان تسمحان للمارين فى الشارع بالنظر منهما ، كانتا يومـاً مرتفعتين فوق قامة الرجل ، وكنا بالداخل لانرى سوى رأس أحدهم حين يكون على ظهر الجمل .

تلك الشروخ فى الجـدران متى تفتـقت ؟ ومتى مـالت الحوئط كل هذا الميل ؟ وفى أى حين تساقطت الدهاكة ، وتقشـر اللون ، فانهال فى رقائق خفيفة تحت الجدار ؟

امرق إلى الردهة الصغيرة ، فتواجهنى الستارة التى تحجز الداخل عن غرفة الضيوف ، وينقطع التيار الكهربائى فجأة . هل اعود القهقهرى إلى الخارج ؟

أنا متعب إلى أقصئ حد ، وبدنى بحـاجة إلى الراحة والنوم العميق ، لابد من البحث عن مصـباح الجاز ، هاهى ذى القداحة فى جـيبى ، أوقد شعلتها ، وأسير على هدى نورها المحدود .

تتحرك ثنايا الستارة حركات خـفيفة ، أيمكن أن تخفى أحداً ورائها ؟ أم أنها نسمة الهواء المقبلة من فتحة السلم الداخلى ؟ إعيد السيطرة على نفسى ، وامتلك الشجاعة الكافيـة لرفعها إلى أعلى ، لاأحد هناك ، لا تخضع إذن لأوهامك ، هل جاء الوقت الذى تخاف فيه من بيتك ؟

أنت تحـفظ أركانه ، وتألف أشـياءه ، وهى تألفك ، لايمكن بـحال أن تصاب بأذى هنا ، فى مكان الألفة والحنين .

هذا هو المصبـاح معلق على حائط المطبخ ، أشعل فـتيله فتسطـع بقعة النور ، وتزداد دائرتها إتساعاً ، أضعه الآن على الطاولة الكبيرة لاتمكن من تبديل ملابسى ، وارتداء منامتى .

من أين يأتيني هذا الهمس الخفيض ؟ ومن الذى أشعل النور المتسرب من حجرة الأب ، إننى اتقدم لانظر بين الضلفتين فأراه هناك عارياً فى الطشت ، يجلس على كرسى خشبى ، وأمى وراءه تنقل الماء وتزيل عن الجسد رغاوى الصابون ، ويتصلان فى حديث لاتلتقطه الأذن وإن بدا حواراً حميماً يرسم البسمة على وجهيهما ، بسمة الرضى والصفاء ، تماماً كما كانا فى زمانهما الأول .

عدت إلى حجرتى ممسكاً المصباح بين يدى ، وضعته على المنضدة أمامى ، وتمددت بجسمى على السرير ، ظلت عيناى مفتوحتين فى فراغ الغرفة تتأملان الكتب المصفوفة على الرف ، وتتنقلان عبر الكائنات الخرافية التى يشكلها الظل والنور بين أعمدة السقف الخشبية ، وعلى قشور الحوائط ، كائنات كثيرة تتشكل وتتبدل وتختفى ، تصرخ أفواهها دون أن يخرج منها صوت ، لامفر من الرحيل .

واستسلمت للغفوة ، وكدت أسحب بدنى تحت الغطاء فى اللحظة التى رأيتها وهى تفتح الباب ، جلست على الأرض تمشط شعرها المبلول ، وجعلته ضفيرتين كبيرتين تنزلان على صدرها ، ومسحت بطرف منديلها سائل الكحل الأسود حول عينيها ، بعدها ، قامت متجهة نحو السرير بجلبابها الخفيف الذى يبدى تكورات الجسد الممتلئ ، صعدت إلى الفراش وتمددت إلى جوارى فى صمت . بعد حين رفعت ذراعها وضمتنى إليها دون أن اشعر بالضمة ، كنت فى حالة لايسمح بالتفريق بين الكائنات الخرافية التى ازدحمت بها غرفتى وبين وجودى المجسم ، استحلت إلى كائن طيفى يحوم فى هواء الحجرة ، ويبدل موقعه على الجدران .

(ورأيتنى أسير فى طريق ضيق على جانبيه نخيل ، كنا كمن يغور فى لوحة زيتية ، والغبش أصبح أكثر قتامة ، وقفنا عند منتهى ترعة راكد ماؤها ، على رأسها سور منخفض ابتناه فلاح بطين وتبن ، وفرشه بقش منفوش ، وجديد ، قدحتا عينان لوغد أعرفه ، وأكرهه .

فكرت : بين الأسوار مكان ملموم .

سحبتها والنشوة تمشى فى عظامى ومتجمعة عند الأنف ، خفت أن اعطس حتى لاافقدها ، كنت أشعر بالفحولة ، فرحت لما ذهبت هى أمامى وغطست بين القش عارية مشتهاة رغم الثياب المهلهلة والقش الذى يحويها اردت أن أفرغ فيها ذكورتى ، كنت سعيداً لمانظرت فى عينيها ورأيت الرغبة فى احتضانى ، وارتميت منهداً إلى جوارها قلت : منذ متى وأنت تذهبين إليهم ؟

احتوت بكفيها أذنى المتقدتين ، قلت : أحبك .

رسمت على أن اضع شفتينا فى تطابق ، ونجحت ، لما لملمت شعرها إلى الوراء ، قالت : ياحبيبى .

لما ضغطت بيدى على نهديها الدافئين تنهدت .

وتقلبنا فى طقطقات القش ، كنت محرجاً حين مددت يدى إلى السراويل أخلعه وظهرت خلفيتى ، كانت جريئة ، ومشجعة ، حين تصالح عرقنا رأيت رأس الوغد التى برزت من الطاقة ، انسحبت كل الذكورة لما نظرت - هى - إليه بتوسل ، لم اتمالك ، قطعت ثوبها ، انفلت منه النهدان ، لطمتها ، تشعث شعرها ، وقفت وبرجلى ارسلت الضربات القوية ، جاء لينقذها ، واصلت الضرب ، اردت ألاتقع نظراته على شئ من جسمها ، كنت احميها منه واضربها ، وفى عينيها عتاب ، وحين تقدم تهت عن نفسى فى توجيه اللكمات إليه حتى سقط .

انسحبت لتذهب ، شددت شعرها ، صرخت ، سالت دموعها ، أحبها أكثر حين تبكى ، ألقى رأسها على كتفى واقبلها ارتعشت شفتاها : ألا تصدق . . أنا أحبك .

وامتزج بنشيجها صراخ ، التفت حولى ، كان صراخ طفل لما تمليته عرفت ملامحه .

قالت لى ذات مساء : أريد أن يكون لى طفل من دمك) .

* * *

مدينة نصر - ١٩٩٦

المؤلف

- يوسف أبورية
- مواليد ، يناير ١٩٥٥ - مدينة ههيا - محافظة الشرقية .
- قضي كل مراحل التعليم فى مدينتـه ، ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٧٣ عقب حرب اكتوبر مباشرة ليدرس الصحافة بكلية الإعلام - جامعة القاهرة .

  وأنهى تعليمه الجامعى عام ١٩٧٧
- عمل محرراً أدبياً فى العديد من المجلات والجـرائد القومية والمعارضة ، ولكنه هجر الصحافة ليتفرغ للكتابة الأدبية .
- حصل على منحة التفرغ من المجلس الأعلى للثـقافة لمدة ثلاث سنوات لينجز عملين روائيين ومجموعة قصصية ورواية للأطفال .
- ترجمت قـصـصه إلى الإنجلـيـزية منـذ عـام ١٩٧٩ ضمن مـختارات القـصة العربية Arbic short stories التى قام بترجـمتها لدار كوارتيت بوكس المسـتشرق الانجليزى دينس جونسون ديفز ثم ترجمت أعماله مرتين إلى اللغة الألمانية ، الأولى ضمن مخـتارات القصة المصرية القـصيرة التى قامت بترجـمتها المستشـرقة الألمانية دوريس كيلاس عام ١٩٨٩

  والمرة الثانية قام بها المستشرق السويسرى هارتموت فيندرتش عام ١٩٩١
- سجل الباحث الأردنى زياد أبولبن رسـالة ماجستيـر عن مجمل أعماله القصـصية ، صدرت فى عمان عام ١٩٩٥ تحت عنوان (الأطفال فى قصص يوسف أبورية).

صدر للمؤلف

- صدرت له حتى الآن خمس مجموعات قصصية هى :

١ - الضحى العالى - دار شهدى ١٩٨٥

٢ - عكس الريح - الهيئة المصرية للعامة للكتاب - مختارات فصول ١٩٨٧

٣ - وش الفجر - الهيئة المصرية للعامة للكتاب - مختارات فصول ١٩٩٣

٤ - ترنيمة للدار - الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة أصوات ١٩٩٥

٥ - طلل النار - الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة أصوات ١٩٩٧

- صدرت له روايتان هما :

- عطش الصبار - روايات الهلال ١٩٨٩

- تل الهوى - روايات الهلال ١٩٩٩

- وله للأطفال :

١ - خبز الصغار - دار الفتى العربى ١٩٨٨

٢ - أسد السيرك - دار الفتى العربى ١٩٨٩

٣ - طفولة الكلمات - الهيئةالعامة لقصور الثقافة ١٩٩٥

٤ - الأيام الأخيرة للجمل - رواية - هوبوبوكس ١٩٩٨

- تحت الطبع :

١ - غرف دافئة .. مقام بارد - مجموعة قصصية .

- وللأطفال :

١ - حقل صغير .

٢ - هكذا تكلمت الأشياء .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٨١٨ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 147 - 1)





يعيش الناس الحياة في كل صورها يحيون الحياة والموت معاً ، ليس الموت هنا مضاداً للحياة ، بل هو المقابل الحي لها ، يبرز واقعاً صلداً مخيفاً محزناً باقياً لا مفر منه وإن سهلت الإحاطة به و الالتفاف حوله .

و من فوق الناس ينظر يوسف أبو ريه إلى موكب الحياة و الاحياء، ترتفع نظرته أحياناً حتى تبلغ مراتب الشعر و تسمو فوق هذا إلى حال من الصوفية . عذبة مقبولة لا افتعال فيها .

على الراعى

تصميم الغلاف / يوسف شاكر